موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

فِي بَرِّيَّةِ مَقَارْيُوس

مع

الأب فليمون المقاري



دكتور جورج حبيب بباوي

في بَرّيةِ مقاريوس

مع

الأب فليمون المقاري

دكتور جورج حبيب بباوي

اسم الكتاب :في برية مقاريوس مع الأب فليمون المقاري

المؤلف د. جورج حبيب بباوي

الناشر : جذور للترجمة والنشر والتوزيع

١٤ ش محمود حافظ . ميدان سفير . مصر الجديدة – ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

الطبعة : الأولى . مايو ٢٠٢١

رقم الإيداع : ١١٤٥٤ /٢٠٢١

الترقيم الدولي : ISBN 978-977-5086-39-6

جدول المحتويات

تقديم ٥

اعترافٌ بالحق ٧

أجساد القديسين ١٧

الإرادة والنِّية هي الأهم ١٩

التواضُع الحقيقي والتواضُع الكاذب ٢٢

الكذب؛ المرض الذي يؤدي إلى الموت ٢٨

الموت الروحي -١ .... ٣١

الموت الروحي -٢ .... ٣٥

الدرس الأول في الحياة الروحية هو أن نتعلم سِر الصلاة ٣٨

جسدٌ بلا رأس ٤٧

اللفظ والحقيقة ٤٨

الدرس الأول في الإفراز ٥٠

الدرس الثاني في الإفراز ٥٢

الدرس الثالث في الإفراز جوهر الإيمان الأرثوذكسي: ٥٣

الثالوث -١ ....

الثالوث -٢ .... ٥٨

الثالوث -٣ .... ٦١

الثالوث -٤ .... ٦٣

الثالوث -٥ .... ٦٤

الثالوث -٦ .... ٧١
الثالوث -٧ .... ٧٢
الثالوث -٨ .... ٧٦
الثالوث -٩ .... ٧٩
الثالوث -١٠ .... ٨٠
الوجود الحقيقي حسب نعمة الثالوث (١) ٨٥
الوجود الحقيقي حسب نعمة الثالوث (٢) ٩٥
الوجود الحقيقي حسب نعمة الثالوث (٣) ٩٨
الوجود الحقيقي حسب نعمة الثالوث (٤) ١٠٢
الوجود الحقيقي حسب نعمة الثالوث (٥) ١٠٦
التجسُّد أعلن تمايُز الأقانيم ١١٠
الصليب؛ قانون المعرفة الإلهية وقانون الإفراز الأول والأخير ١٢٥
الصليب حكمة الله المثلث الأقانيم ١٣٤

تقديم

عندما تمرُّ الأيام ويعبرُ زمانُ الحياة، نتوهَّم ونخاف أن تُصاب الذاكرة بالنسيان... أن ننسى ما سمعناه ورأيناه واستقر في قلوبنا من كلماتٍ وتعليم لم يكن مألوفًا لدينا في البداية، ولكن الحق المعلَن في المسيح، مهماً كانت محتوياته، لا يمكن أن يضيع لأن الثوابت التي نعرفها عن الحياة المسيحية هي ثوابت أبدية ... قد نُعبِّر عنها بألفاظٍ متنوعة أو بطرقٍ شتى، ولكن الحق، مهما تنوَّعت طرق التعبير عنه، يبقى دائمًا ثابتًا، وهو ما عبَّر عنه الإنجيلي يوحنا بعبارة موجزة: «كلمته ثابتة فينا».

هكذا أدركتُ أن زمان التعبير عن التعليم وعن الحق قد حان لكي يُسلَّم لأجيالٍ آتية سوف ترى فيما هو مدوَّن الحقَّ الذي عاشه رجلٌ مثلنا أتقن الصمت، وأتقن التستُّر وراء «العَبَط» لكي يُنقذ نفسه من الجدال ومن الحوار. لأنه، مثل غيره من قديسي الكنيسة، كان يدركُ أن الحقَّ يُشرقُ بنوره لمن يريد أن يُفتِّش عنه، لأن الحقَّ هو المسيح الذي يجده كل مَن يفتش عنه.

عندما جلستُ لكي أكتب هذه الأقوال الحيَّة، كان معي كراستان قديمتان، ولكن كان صوت الأب فليمون في ذاكرتي، ولم أحذف شيئًا، وأعتقد أنني -في أمانةٍ- لم أُضِف شيئًا، لأنني كنت أحرص على نقل كل ما قيل في دِقة.

قد يتصوَّر القارئ أن هذا الراهب الذي تظاهر دائمًا «بالعَبَط»، بسيطٌ أو ساذج، وهو صاحب كلمة عربية جديدة: «البَلِّيم»، أي «التبلُّد»، من الكلمة الشائعة «بَلَّم». و«البَلِّيم» هو الغطاء أو الثوب الذي كان يَلبَسه لكي يصُدَّ عيون الناس عن اكتشاف حقيقته. لقد عاش بيننا ولم نحس به، ولا أدركنا أنه خزانةٌ هائلةٌ لأسرار الحياة الروحية الأرثوذكسية. كان قليل الكلام، وكان يتظاهر بأنه لا يسمع ولا يفهم، ولذلك

انصرف الناس عنه. حتى رهبان الدير اعتقدوا أنه «بسيطٌ»، لا ضرر منه ولا منفعة، وهكذا عَبَر في هذه الحياة دون شِجار، ودون معارك كلامية من أي نوع.

كان الأب فليمون يتكلم كَمَن يقرأ من كتاب، وكانت الأفكار متواصلة مرتَّبة. وتحت رداء البساطة والسذاجة، ظَهَر راهبٌ قبطيٌّ حقيقيٌّ دَرَسَ الصراع الروحي وخِطَطَه وأتقن الحرب الروحية، وهو هنا مثل قائدٍ يعمل في ميدان القلب، ينَقِّي هذا القلب ليكون عرشًا للثالوث.

وتمرُّ سنواتٌ على نياحة الأب فليمون. والآن، وقد نساه أغلب الذين يعرفونه، صار من الضروري أن أكتب من أجل الكنيسة ومن أجل مجد المسيح.

دكتور

جورج حبيب بباوي

٣ أغسطس ٢٠٠٠

اعترافٌ بالحق

مع أن الأب فليمون المقاري لم يتكلم كثيرًا، إلاَّ أنه كان بالألفاظ العامية الدارجة، يقول الكثير، لا الذي لا يحتاج إلى صفحاتٍ وفصول، بل الكثير الذي يوضع في أقل قدر ممكن من الكلمات، لأن «قوة الحق ليست في كثرة اللفظ»، وهذه هي عبارة الأب فليمون المقاري، قالها باللغة الدارجة: «قوة الحق مِش في الكلام الكثير» ... وهكذا نقلتُ بنفس دقة الإدراك مع تحول «مِش في الكلام الكثير» إلى «كثرة اللفظ».

تظاهَر «بالعَبَط»، واحتمل نقد الرهبان، بل وظن أحد رهبان الدير في مناسبةٍ معيَّنةٍ أنه أُصيبَ بالجنون، وكاد وكيل الدير أن يرسله إلى مستشفى «بهمان» في حلوان، ولكن لسببٍ غير معروف تراجع عن القرار.

هذه واقعة كانت ذات تأثير كبير على فكري الشخصي وعلى علاقتي بالمسيح ... كنتُ في الدير بعد عيد الميلاد المجيد ١٩٦٠ مع الراحل الكريم الأب شنودة السرياني (الأنبا يوأنس أسقف الغربية المتنيح)، وذهبنا إلى الدير، وكانت حالة مباني الدير سيئة جدًا؛ إنهار جزءٌ من سقف كنيسة «السُّياح» في أعلى الحصن ... ونقُص عدد الرهبان، وكانت المضيفة في حاجة إلى تجديدٍ شامل، وأذكر «البرد» الشديد و«الهدوء» الشامل الذي عرفته.

وبعد صلاة نصف الليل والقداس، كُنّا نجلس في المضيفة في انتظار سيارة دير السريان لكي نعود إلى دير السريان، وسمعنا شجارًا. راهبٌ يتحدث بصوتٍ عالٍ مع شخصٍ آخر، ظهر بعد ذلك أنه الأب فليمون. كان يرتعش من البرد، فقد كان يلبس رداء الرهبنة الأسود «على اللحم»، وكان وكيل الدير الأب متى المقاري يتكلم في غضبٍ ظاهر، وقال له: «أنت مِش بتحضر القداسات ولا بتصلي معانا. أنت حرمت نفسك من الشركة وليك حوالي سنة مدخلتش الكنيسة ... بتعمل كده ليه ... أنت

حرمت نفسك من الشركة». وكان الأب فليمون ينظر إلى الأرض وعيناه على التراب تحت قدميه وتحت قدمي وكيل الدير. وقال في هدوء شديد: «أنا مِش محروم» وسَكَت. وقال وكيل الدير: «أنت ليك سنة متناولتش فيها». وقال الأب فليمون: «أنا أتناولت قبل خلق العالم». وهنا قفز وكيل الدير من الغضب وقال: «أنت اتجننت»، ثم قال للأب شنودة السرياني (نيافة الأنبا يوأنس): «أنت شاهد يا أبونا شنوده. أنا هبعته لمستشفى بهمان. الراهب اتجنن»، ونظر إليه وقال: «المسيح أسِّس السر يوم الخميس الكبير، مِش قبل خلق العالم». وقال الأب فليمون: «حقك عليّ يا قُدس أبونا»، وسار في هدوء نحو قلايته.

سمعتُ هذا في دهشة، فكلا الرجلين عبَّر عن حق، لأن الإفخارستيا أُسِّست فعلاً يوم الخميسً الكبير، أي خميس العهد، ولكنها كانت في إرادة وفكر الله قبل خلق العالم ... أدركتُ هذا في اللحظة التي سمعتُ فيها هذا الحوار القصير جدًا بين اثنين كلٍّ منهما كان يرى الأمور من زاوية مختلفة تمامًا.

ومرَّت أيام وجاء عيد الغطاس، فذهبتُ للصلاة مع قداسة البابا كيرلس السادس، وسألني عن سبب غيابي، فقلتُ له إنني كنتُ في زيارة أديرة وادي النطرون. ولم يسأل عن أحدٍ سوى الأب فليمون المقاري ... وظننتُ أن وكيل الدير أرسله إلى المستشفى، وذكرت له ما سمعت ... فقال وهو يبتسم: «هو قال إنه اتناول قبل خلق العالم؟ عال يبقى أخد الابتدائية». ولما لاحظ قداسة البابا كيرلس السادس أنني لا أفهم وسألته، فقال لي وهو يبتسم: «خُد حُط الفيشة في الكهربا»، ولما فعلت ذلك قال لي: «نوَّر»، ولما فعلت ذلك قال لي: «فهمت؟»، فقلتُ: «لا». فقال لي: «الكهرباء في الأسلاك على طول، ولما نحتاج للنور بناخد النور لما نحط الفيشة في التوصيلة، صح الكلام ده؟» فقلتُ له: «صح»، فقال: «هكذا كل ما هو كائن في حياتنا، هو -حسب التدبير- كائنٌ منذ الأزل، ولما نحتاج إليه نأخذه حسب وعد الله في الزمان ... فالزمان خاضع للأزل». وقال لي: «فهمت؟»، فقلتُ: «لا»، فقال «يا ابني يا حبيبي، المسيح

له المجد قرر إنه يتْجَسِّد قبل خلق العالم، وقرر إنه يدِّي نفسه ويدِّي جسده ودمه قبل خلق العالم ... ده هو أساس السر وأساس كل الأسرار». فقلتُ: «ده كويس»، لكن إزاي أبونا فليمون اتناول قبل خلق العالم؟ فقال قداسه البابا كيرلس السادس: «لأن الرسول بولس بيقول اختارنا فيه قبل تأسيس العالم»، ويقول أيضًا: «الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه»، ودول يا ابني همَّا أنت وأنا... لأن كل ما يحدث في حياتنا الزمانية الجسدانية مصدره مِن فوق، مِن عند الآب السماوي، والقُداس أساسه في الأزل ... ودُهِشت، وأعترف وجدتُ نفسي أدور حول نفسي ... وقلت لقداسة البابا في دهشة: «طيب والقُداس لزمته إيه؟»، فقال لي: «أنت اتلخبطت لأنك لسه في أولى روضة، بكره تاخد الابتدائية. أبونا فليمون يا ابني كبير عليك، وكبير على بعض رهبان الدير، وهو بيتظاهر بالعَبَط علشان يُستَر حاله». ولم يشأ أن يتكلم أكثر مما قال، لأن عادة قداسة البابا كيرلس أنه يضع يده على رأس مَن يعتَرِف أو يسأله عن بعض الأمور الخاصة ... وعندما يُصلِّي تصبح الصلاة هي آخر ما يريد أن يقوله ... وهكذا ترك الموضوع برمته.

وتمرُّ الأيام، ويجيء بعض الضيوف، ويطلب مني الراحل الكريم نيافة الأنبا صموئيل (الراهب القمص مكاري السرياني) أن آخذ الضيوف إلى الأديرة.

ووجدتُ نفسي أعود إلى الدير ... وكان أول مَن تقابلت معه هو الأب فليمون الذي قال لي دون أن أسأله:

«سيب الضيوف يزوروا علشان أنا عاوزك».

وكانت أول مرة أدخل فيها قلاية الأب فليمون، قلاية بسيطة وحقيرة جدًا .. حصيرة وقُلِّة ماء ... وبطانية في ركن صغير. وجلستُ على الحصيرة الوحيدة في القلاية، وقال لي:

«أبونا البطرك قال لك إيه؟»

ودُهِشت، لأنه بدا لي أنه يعرف ما دار بيني وبين قداسة البابا كيرلس السادس، وقلت له ما سمعت ... وابتسم وقال تعليقًا على عبارة «شهادة الابتدائية»:

«عال، دي شهادة كبيرة من أبونا البطرك».

وقلت له: «أنت عرفت إزاي إن أبونا البطرك اتكلِّم معايا؟» فقال: «مِن القلب للقلب رسول».

ولم أُعلِّق، ولم أسأل ... ففي المجال الروحي الذي يعلو على الزمان، لقاء القلوب سهلٌ، و «حوار المحبة لا يخضع للمسافات والزمان» ... وهذه عبارة للأب فليمون.

ومَدَّ الأب فليمون يده وأخذ حفنةً من رملٍ ناعمٍ جدًا تحت باب القلاية، وقال لي:

«افتح إيدك»، وفتحتُ يدي، ووضع الرمل في يدي وسألني: «مين شايل الرمل؟ هتقول إيدي، وهتقول الأرض. ده كلام صحيح، ولكن الأصح هو أن المسيح رب المجد شايل كل ما هو موجود «بكلمة قدرته» (عب ١: ٣)».

وحتى لا يتعب القارئ من نقل الكلمات من العامية إلى الفصحى، قال الأب فليمون:

«أنت وأنا والبرِّية والمسكونة وكل الساكنين فيها والرتب والقوات السمائية لنا وجود في قلب اللّٰه .. وعندما نُخلق في الزمان لا يختفي هذا الوجود، بل يصبح منظورًا. ولذلك، عندما نُولد ونكبر، فإننا نحن الترابيين نَفصِل بين ما هو أبدي وما هو زماني .. ونجعل هذا الانفصال فلسفةً وفكرًا وأحيانًا ندافع عنه بكل ما لدينا من قدرات، لكن الزمان فرعٌ من شجرة الأبدية، الوجود في قلب اللّٰه هو أساس الوجود، بل هو الوجود الذي يريده اللّٰه لنا، ولكن الخطية تجعلنا نختار حياة ضد إرادة اللّٰه. طبعًا الجسد والروح ليس لهما وجود أزلي، بل هما مخلوقان من العدم ... ولكن أساس الخلق من العدم هو تدبير اللّٰه أن «نُوجد ونحيا

ونتحرك» حسب إرادة اللّه، ولكن الخطية تجعلنا نُوجد ونحيا ونتحرك حسب إرادتنا، فنقع في هذه الثنائية التي تُفسد علينا الفرح والسلام الأزلي، والشركة الحقيقية مع اللّه عندما نظن أن بداية الوجود هو الوجود الترابي».

وحلَّ سلامٌ غريبٌ وفرحٌ ودهشةٌ في قلبي.

ونكَّس الأب فليمون رأسه وكان ينظر إلى الأرض ... كأنه يقول أنا أرى حقيقة حالي ... ولم أتجاسر أن أسأله، ولكنه هو الذي قطع الصمت وقال:

«نحن نحتاج للقداسات ... لأننا لسنا أنقياء بالكفاية التي تجعلنا نرى الوجود الزائف الذي خلعه علينا الزمان. والقداس مدرسة الصلاة الأولى».

وقال لي هذا المثل:

«إنسان ابن ملك وُلِد في القصر الملكي وعاش فيه وهو طفل، ولما خرج مرة لكي يلعب في حديقة القصر الملكي، خطفه لصٌّ كذَّاب وحمله في وكره النجس الحقير، وهناك عاش هذا الصبي وفي قلبه ذكريات مطموسة غير كاملة عن القصر وعن والده الحقيقي .. ولم يُصدِّق ما كان يقوله اللص، إلى أن جاء أخيه البِكر، وصرع اللص الكذاب، ونقل أخيه الصغير إلى القصر مرة ثانية»، وابتسم وقال: «فهمت؟» فقلت له: «تقريبًا». وقال: «عندما عاد الابن المخطوف إلى القصر، وَجَدَ أنه يحتاج إلى زمان وأيام لكي يتذكَّر فيها ما كان يحدث في طفولته، وأين كان يعيش. **ولذلك يخاطبنا القداس الإلهي: «ارفعوا قلوبكم»، لكي نعود إلى الوجود الحقيقي كأخوة للابن البكر الوحيد الجنس ربنا يسوع المسيح .. في القداس نحن نعود إلى القصر، وعندما نتناول، نُدرِك أننا كنّا قبل ذلك أحرارًا وأبناء...**

وقاطعته وقلت له: «لكن، أنت قلت أنا اتناولت قبل خلق العالم.. وهذا يعني أنك لا تحتاج إلى التناول في الكنيسة»، وابتسم في وداعةٍ وقال: «ربنا يسوع المسيح قال من نظر إلى امرأة ليشتهيها في قلبه فقد زنى

بها ﴿ قلبه» (مت ٥ : ٢٨). فقلت له: نعم. فقال: «إذا كان الشرُّ قادرًا على هذا، فماذا نقول عن الخير؟ يقول المزمور: «يعطيك الرب حسب قلبك». «القلب هو كل شيء .. **ما يحدث خارج القلب ويدخل القلب إمَّا هو من الله، وإمَّا هو من شهوات الإنسان. إذا كان من الله، فله أساس، إذا كان من شهوات الإنسان، فليس له أساس.**

علينا أن نميِّز بين الحق كما هو حسب التدبير، والحق كما نتصوَّره ﴿ قلوبنا. **ما نذكره ﴿ القداس له أساس ﴿ قلب الله، وإلاَّ نصبح نحن كذابين، لأننا نطلب ونسعى وراء ما ليس له وجود بالمرة. ما نأخذه هو جسد الرب ودمه، أي المسيح نفسه، وهو الذي قال: «أنا هو الكرمة الحقيقية وأبي الكرَّام، كل غصنٍ ﴿ ...»، وأصل الكرمة هو الابن الأزلي، ونحن الأغصان اكتشفنا وجودنا ﴿ الكرمة ﴿ زمان الحياة، ولكن الغصن الجديد الذي ينمو ويظهر ﴿ الزمان هو غصنٌ جاهلٌ تمامًا إذا ظنَّ أنه هو سبب وجوده ﴿ الكرمة، أو أن الزمان هو الذي أعطاه الوجود، أو أن الناس هم الذين وضعوه ﴿ الكرمة، أو أن وجوده ﴿ الكرمة هو وجودٌ حديث. لا، هو وجودٌ أبدي، ولكن هذا الوجود الأبدي نكتشفه ﴿ الأسرار الكنسية، ومِن الأسرار نعرف أننا نوجَد ﴿ الكرمة قبل خلق العالم، وأننا خُلِقنا ﴿ الزمان لكي نكتشف هذه الحقيقة المستترة عن أذهاننا.**

هذا كلامٌ صعب، لا يدركه الذين لم يحصلوا على الابتدائية».

فقلت له: ما هي هذه الابتدائية؟

فقال: «أنت تبقى ناجح فعلاً لو عرفت أن وجودك الأزلي هو سبب وجودك ﴿ الزمان. وأن وجودك بعد خلقك من العدم هو وجود يجب أن ينطبق على الوجود الأصلي، وإلاَّ ضاعت علينا نعمة ملكوت السموات».

وعَبَرت ﴿ قلبي أسئلة كثيرة، واعتراضاتٌ صعبة على كلام صعب .. ولكني سكتُّ، ونظر إليّ وقال: «أبونا البطرك هيشرح لك كلٍ شيء».

أعترفُ بالحق أنني لم أفهم، فقد ثارت ﴿ عقلي أسئلةٌ كثيرة ..

وأدركت أنني في هذه المرحلة مجرد «مستمع».

عندما أسرعتُ عائدًا إلى القاهرة لكي أُناقش الأمر مع المعلِّم الكبير قداسة البابا كيرلس السادس، كان قلبي مملوءً بالأسئلة.

هل لنا وجودٌ واحدٌ عندما نُخلق في أرحام أمهاتنا؟ أم لنا وجودٌ سابقٌ، وهي ذات النظرة اليونانية الفلسفية التي نادى بها أفلاطون، والتي أدَّت إلى اعتناق العلاَّمة أوريجينوس نظرية تناسخ الأرواح؟

واسترسلت في التساؤلات حتى وصلتُ إلى البطريركية، وحضرتُ صلاة العشية، ومرَّ قداسة البابا كيرلس بالبخور، فأسرعتُ وقبَّلتُ يده .. وبعد البركة سألته إذا كان وقته يسمح، إذ لديَّ بعض الأمور الهامة ...

جلسنا في الصالون الداخلي الملحق بقلاية البابا كيرلس .. وكان أول سؤال: «إزَّي أبونا فليمون؟» وقلت له: «كويس»، ولكن كيف تتحدث معه وليس في الدير تليفون؟ وابتسم وقال: «من القلب للقلب رسول». فقلت له: هذه عبارة أظن أنها من إحدى الأغاني. فقال قداسته: «ليس كل ما يُقال في الأغاني شرير أو خطية»، ولكن القلب الذي لديه شوق لأن يعرف، يجد المعرفة سهلةً بسبب المحبة والشوق، لأن العطشان يجد عذوبةً في الماء الذي يشربه، أمَّا الشبعان من الماء، فهو مستعد لأن يرفض كوب الماء .. فهل قلبك مستعد؟

وقلت له: «يا سيدنا اعمل معروف، قُل لي ما هي نظرتك لسر الإفخارستيا، ولماذا تصلي قداسًا كل يوم إن كنت قد تناولت قبل خلق العالم، ولماذا لا يتناول أبونا فليمون كل يوم، بل هو لا يدخل الكنيسة إلاَّ قليلاً مما يُسبِّب له مشاكل مع بعض رهبان الدير؟»

قال قداسة البابا كيرلس السادس: «كل واحد على قد حاله.. والتناول عندي عطش وشوق للمسيح. إنني أعتبر أن اليوم الذي لا أُصلِّي فيه قداسًا قد ضاع مني وفقدته .. أمَّا أبونا فليمون، فهو من نوعٍ آخر، وله حالٌ آخر يعرفه هو جيدًا».

«يا ابني يا حبيبي، **القداس هو عودتنا إلى الأبدية، هو رجوع الزمان إلى ما هو كائن في قلب الله**، وهو ما يعلو على أذهاننا. حسب الفكر والفهم الإنساني، كلُّ شيء يتحرك في خط مستقيم له بداية ونهاية، أمَّا حسب تدبير الله، فكل شيء يتحرك حسب تدبير الله، والله لا يتحرك، بل هو الذي يحرِّك كل الأمور. يقول الرسول: «لتدبير ملء الأزمنة». وأيضًا: «في ملء الزمان أرسل الله ابنه». **الملء هو عودة الزمان إلى أصله، إلى الله حيث يملأ الله الزمان بما هو كائنٌ في مسرته ومحبته**.. أنت تفكر في نوعين من الوجود لأنك مولود في الزمان، وتظن أن وجودك في الزمان هو بدايتك الحقيقية، ولكن الواقع هو عكس ذلك، أنت تكتشف وجودك الزماني في نور وجودك حسب الإرادة الإلهية، لأن هذه الإرادة الإلهية هي التي أعطت لنا الوجود والحياة والحركة حسب قول الرسول: «لأننا به نوجد ونحيا ونتحرك». وقول الإنجيلي: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان».

فقلت له: «قدسك تقترب كثيرًا من تعليم أفلاطون». فقال: «لا أعرفه ولم أسمع به، ولكنني أعرف مار اسحق والآباء الرسل».

خجلت من نفسي لأنني تحدَّثتُ عن أمورٍ لا يعرفها مُعلِّمي، لأنه لم يتلقَ ذات التعليم، وهو لم يدرس الفلسفة اليونانية. وشَعَرَ قداسة البابا بما يجول في عقلي، فقال لي: «مِش أبونا فليمون قالّك بعد ما حَط الرمل في إيدك إن الرب يسوع المسيح له المجد شايل كل الكائنات بكلمة قدرته؟» ذُهلت لأن قداسة البابا يعرف هذه المعلومة الصغيرة. فقلت له: نعم. فقال: «المسيح له المجد هو مصدر حياة كل الكائنات .. الكائنات الروحية السماوية تأخذ قُوُتَها الروحي من معاينة الله، والكائنات الأرضية مثلنا، نحيا بنوعين من القوت؛ النوع الأرضي الذي نشارك فيه الحيوانات، والنوع السماوي النازل من عند الآب. ما هو أرضي يُولَد من الأرض ويذهب إلى الأرض ويَبيد مع الأرض. ما هو سمائي له البقاء والدوام، أصله في الله، ويُعطى حسب نعمة الله، ويبقى فينا لأنه هبة حياة ويعود بنا إلى الله».

كانت إحدى عبارات قداسة البابا كيرلس السادس المشهورة: «حدَّد بالأوقات المحددة حدود مسكنه»، وكانت تُقال على أمورٍ كثيرة .. هنا فقط أدركتُ أن حدود مسكن اللّه معنا هو في القداسات. وقال قداسة البابا كيرلس السادس: «أنا إنسان ضعيف. بدون المن السماوي ليس لي حياة حسب وصية رب المجد: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان ليس لكم حياة فيكم»، فكيف أعيش وأنا بعيد عن الحياة الحقيقية التي يعطيها لنا الرب يسوع المسيح؟ ولكن صدقني، إننا نتناول حسب إرادة اللّه الأزلية الذي خلقنا لكي نشترك في خيراته وصلاحه، ورتَّب هذا في تدبير تجسُّد الابن الوحيد، ولما آمنّا عرفنا هذا، ولذلك أنا أتناول كل يوم لأنني أعود إلى تدبير اللّه في رب المجد، ربنا يسوع المسيح».

كفاية كده وتعالى بعدين .. ووضع يده وصلَّى.. وتركتُ البطريركية بقلبٍ مملوءٍ بالدهشة والتعجُّب وبفرحٍ غامضٍ.

وتمر الأيام في دراستي في الكلية الإكليريكية أسمع دروسًا عظيمة من أساتذتنا الأجلاء ... ولم أُفاتِح أي واحد منهم، فقد قال لي قداسة البابا ذات مرة إن هذا حديثٌ خاص لا يفيد «الدراويش»، وهو يقصد الذين يعيشون حسب الحرف وحسب المعنى الظاهر. ولم أكتفِ بما سمعت، فقد كنت أُرتِّب نفسي لزيارة دير الأنبا مقار .. وجاءت عطلة عيد القيامة، فذهبت إلى الدير، وكان هذا أطول لقاء مع أبونا فليمون.

قال لي: «يا أخ، دخلت البرِّية بعقلك ولا بجسمك؟»، وكنتُ قد أدركتُ عمق الرجل، فقلت له: «بالاتنين». فقال لي: «ماينفعش». فقلت له: «ليه؟»، فقال: «هما أصلاً مش اتنين، ولكن الخطية عملتهم اتنين. يقول رب المجد: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون اللّه»، أي يرون اللّه بالعين الروحية، والعين الخارجية تُدرِك أن ما تراه هو إعلان عما هو غير منظور. الإنسان اللي قلبه وجسده واحد، هو إنسان غير منقسم، إذا دخل البرية بقلبه، يبقى قلبه وجسده واحد، لأن رب المجد قال عن مريم إنها وجدت الواحد، وهو النصيب الصالح».

ونظر إليَّ في وداعة وقال: «لما أبونا البطرك يقول حاجة حلوة لازم كلنا نسمعها لأن صوت الفم واللسان هو صوت يدخل الأذن الخارجية، أما صوت الروح فتسمعه كل الأرواح المتصلة بحنان ورحمة اللّٰه ومحبته، الذي يجمع كل التائبين والصديقين معًا في الواحد يسوع المسيح. رب المجد؛ ربنا يسوع المسيح هو رأس الكنيسة، أي جسده، ولذلك -بسبب وحدتنا معًا فيه ووجوده فينا- نحن نعرف ماذا يحدث لكل عضو بسبب نعمة اللّٰه، وليس بسبب شطارة ونقاء الإنسان».

هكذا أدركتُ أن انقسام الزمان والأبد هو مثل انقسام الجسد والروح، وهو انقسامٌ مُصطنعٌ غريبٌ على خليقة اللّٰه.

وقال أبونا فليمون: «الروح هيَّ الأصل، وهيَّ سبب حياة الجسد، ولذلك عندما تترك الجسد، يموت الجسد ويفسد. ومَن يعود إلى الأصل، يجد الإجابة على كل سؤال يحيِّره. أنت تريد أن تنقل وجودك الترابي الزماني إلى الأساس الأزلي، وعندما تفشل في ذلك تظن أن التعليم خطأ. الأساس أزلي والدور الأرضي ترابي».

أجساد القديسين

ذهبتُ للصلاة في الكنيسة الكبيرة، كنيسة الأنبا مقار، وسجدتُ عند المذبح وعند أجساد القديسين. وفجأة رأيت أبونا فليمون يقف عند باب الكنيسة الرئيسي، وقبل أن أقول أي شيء، قال لي: «كنت بتعمل إيه يا أخ؟» فقلت له: كنت أُصلِّي. فقال: «سجودك عند المذبح له سبب معروف، ولكن لماذا سجدت عند أجساد القديسين؟ فقلت: «علشان آخذ بركة». فقال: «لو كان أبو مقار حي بالجسد، كان رفض المطانية منك، ولكن لأنه تنيَّح، وهو في المجد، علشان كده بتتشطَّر عليه!

إحنا بنسجد عند أجساد القديسين، وحسب سيرة الأنبا مقار، كان يرفض أي مطانية" .

وقلت له: يا قدس أبونا، لماذا تسجد أنت عند أجساد القديسين؟ فقال لي:

«ناس تسجد علشان بركة.. لكن بركة إيه؟ وناس تسجد علشان عادة، ولكن العادة اللي مافيهاش روح تبقى عادة بطالة .. وناس تسجد للتوبة، وأنا أعرف واحد بيقول للرب يسوع المسيح يا رب يسوع ارحمني أنا الخاطئ. أنا بسجد هنا علشان آخد التوبة والمجد اللي أخدوه القديسين دول، والأخ اللي علِّمني كده قال لي يا فليمون أوعى تقلِّد غيرك وحاسب على قلبك من عادات الناس، خليك صاحي لأن غفلة النائم بتسبب تعاسة روحية للنائم .. خليك صاحي يا أخ واسجد بفهم وإدراك، واطلب توبة ومجد القديسين، ومجد القديسين هو نقاوة القلب».

ونظر إليَّ وقال: «أنت كنت بتبوس الأيقونات ليه؟ وليه ولَّعت شمعة، هو الست العدرا والقديسين في العتمة مستنيين نورك؟»

وأدركتُ أنني أمام سؤال لم أُفكر فيه مِن قبل، ولكن الحقيقة هي أنني أطلب بركة القديسين عندما أُقبِّل الأَيقونات. فقلت له: حسب

العادة. فقال لي: «ابن اللّه لا يَعبُد حسب العادة، مين يدّي بركة، الأيقونة ولاّ أنت؟ اللون والخشب، ولاّ أنت اللي فيك روح اللّه القدوس؟ فقلت له: ولكن الأيقونات رُشِمَت بالميرون. فقال لي: صحيح، وأنت كمان اترشمت بالميرون، مين اللي يدّي بركة؟»

هكذا أراد أن يصحح معنى البركة في دقة نادرة، وقال لي: «يا عبيط، شايف كل ده؟ وأشار إلى كل ما في الكنيسة؛ الهيكل والمذبح والأواني. كل دول علشانك، كل دول هيبقوا تراب وأنت يا عبيط اللي هتقوم في المجد. زَي واحد ابن ملك، أبوه إدّاله أحسن كتاب، وأحسن طعام، وأحسن مسكن لأنه بيحبه، قوم قلبه ينشغل بالعطايا وينسى إن العطايا دي كلها علشانه هوَّ. كل اللي هنا علشانك، وأنت وحدك هتقوم في مجد مع القديسين. حاسب على نفسك، وشوف المسيح في هذه العطايا علشان متغلطش وتبقى العطية سبب للخطية».

«الإنسان أعظم من مبنى الكنيسة، لأن مبنى الكنيسة اترتّب من أجل الإنسان».

وقال أبونا فليمون: «شوف العادات، تلاقي واحد يمسك الصينية والكاس بالفوطة، ولو مسكها بإيده هيحصل إيه؟ هو الإنسان اللي ينسى إنه أعظم أعمال اللّه، يسقط بسهولة في صِغر النفس، وينسى شجاعة أولاد الملوك، ويبقى عبد خوَّاف».

حقًا، كل ما في الكنيسة هو من أجل حياتنا، وسيبقى ما هو أبدي، والباقي لن يقوم. لن تقوم المباني، ولا حتى الأيقونات، ولكن الذي سوف يظهر في يوم القيامة هم القديسون الذين سوف يعلنون لنا صورة وأيقونة المسيح التي أخذوها، وهي نفس الصورة التي أخذناها.

الإرادة والنِّية هي الأهم

رتَّبت الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية الطقوس لكي ترتِّب لقاء المؤمنين بالمسيح يسوع ربًّا ومخلِّصًا في نعمة الروح القدس. وخلف كل ترتيب طقسي تكمُن الإرادة والنِّية، والشوق الذي يزرعه الإيمان للشركة في حياة الرب بالصليب، أي بجحد الذات. هكذا فَهمتُ الطقوس الكنسية، والتمستُ من المعلِّمين العظام الذين كان لي شرف التلمذة عليهم أن أفهم وأعيش في الكنيسة لكي تحيا الكنيسة فيَّ. ولكن ما أسهل أن يقع الإنسان ضحية الجهل، فتصبح الطقوس ممارسةً جامدة، وينسى أن الطقس وُضِعَ لأجل حفظ الحياة الروحية في الإيمان.

كان أهم درس تعلَّمته أن أرشم الصليب بالإرادة والنِّية قبل أن تتحرك يدي. وكانت عبارات الأب فليمون سهلةً واضحة وصعبة على الإنسان، أي إنسان، لأن الإنسان هو ابنٌ وفيٌّ للعادات التي يحبها.

قال الأب فليمون، وأنا هنا أُعيد صياغة عبارته:

«لا ترشم الصليب بسرعة، لأن رشم الصليب يجب أن يكون بالنِّية وبالإرادة حتي لا تفرح بك الشياطين. كن مثل القناص الماهر الذي يصوِّب بدقة وفي هدوء. وعندما تتحرك يدك من أعلى إلى أسفل تذكَّر تواضُع الرب وتنازُله، واجعل حركة اليد هي حركة وعي قلبك بما يتحرك في قلبك من كبرياء واعتزاز بالنفس».

ورغم مرور عدة سنوات، لازلت أرشم الصليب كعادة، ولازلت مثل الصياد المبتدئ الذي يضرب بسرعة وبدون اتقان. ولكن غَرَسَ الأب فليمون في قلبي الاهتمام بالإرادة والنِّية، نية ترك كل شيء من أجل المصلوب. وتمرُّ بنا أحداثٌ كثيرة، كان من الممكن تلافي أغلبها، ولكن كانت الشهوات العابرة الوقتية هي صاحبة الكلمة المسموعة. وبعد مرور هذه الأحداث، وعند حساب النفس، يُدرك الإنسان أن رشم

الصليب بسرعة وعَجَلة هو محاولة إفلات من رباط محبة المصلوب، وهي محاولات دائمة لأن تكون لنا إرادة مستقلة عن إرادة المصلوب.

مرَّت أيام وأنا في الدير ولم أحظَ بلقاء الأب فليمون. وقال أحد الرهبان إن اختفاء الأب فليمون يعني أنه غَسَلَ «الجلابية»، وأنه ينتظر أن تجف، فلم يكن له غير «جلابية واحدة»، ولم أستطع أن أسأل الأب فليمون عن هذا الأمر، فهو أمر شخصي ولا يجب أن أتدخل فيه.

قال لي مرة وأنا أحاول أن أُسجِّل تاريخ حياته وطفولته وسبب حضوره إلى الدير، وهل حقًا جاء إلى الدير وهو شاب صغير، أم أن ما يُشاع عنه هو غير صحيح، فقال لي عبارة موجزة:

«القطة تحب تحط مناخيرها في كل حاجة علشان تشمها، ومرة شمِّت حفنة شطة، وكانت هتموت من العطس». والقطة هي رمزٌ للفضول، والفضول هو أحد ثمرات الكبرياء، لأن الذي يهتم بأموره ولا يفتش عن أمور غيره هو إنسان حكيم حقًا، لأنه يدرك أن الاهتمام بالقلب هو الطريق الصحيح للملكوت. «ماذا تفيدك جمع أخبار الناس والتدخُّل في أمورهم الخاصة؟ الفضول يقتل خوف الله من القلب».

هكذا كان يعيش...

بعد صلاة الغروب لمحته يسير في هدوء، ولم أحاول أن أتكلم معه، ولكنه بدا كما لو كان قد تذكَّرني، وقال لي: «يا أخ هو أنت لسه هنا؟»، فقلت له: «لا أريد أن أذهب قبل أن أراك». فقال: «ليه؟»، فقلت لديَّ أسئلة كثيرة. فقال: «الذي يحب الحق ويسعى وراءه يدرك أن الحق هو المسيح، وأن طلب الالتصاق بالرب هو المعلِّم الأول».

وسألته عن الإرادة والنِّية، فقال لي في هدوءٍ شديد، كَمَن كان يراقب ويرى شيئًا بعيدًا: «يا أخ سوف تأتي عليك أيام سوف تشتهي أن تتناول فيها جسد الرب ودمه، وسيكون تناولك بالنِّية وبالإرادة، لأن شخصًا ظالمًا سوف يمنعك من التناول لكي تنزل هذه العقوبة على رأسه

هو». واخترقت كلماته كياني كله، وقلت له: «لماذا؟»، فقال: «اللّه يرتِّب حياتك حسب إرادته، وأحد آبائنا القديسين قال: «الغُربة أفضل من إضافة الغرباء»، فقلت له: «ليه؟» فقال: «إضافة الغرباء» قد تسقي شجرة الكبرياء، أما الغربة فهي سكين حاد يقطع بعض جذورها، ونعمة ربنا يسوع هي وحدها التي تقطع كل الجذور».

وحاولت أن أُقبِّل يده، ولكنه قال لي: «دي هَيَاكُلها الدود، لو بوستها هتستفيد إيه؟» وتركني وعاد إلى القلاية وأغلق الباب.

وفي مرة سابقة قال لي: «هتبوس إيدي ليه؟ بكره هَيَاكُلها الدود، بوس حاجة ليها فايدة وهتدوم».

التواضُع الحقيقي والتواضُع الكاذب

لقد مرَّت الآن حوالي عشر سنوات، منذ أن تنيح الأب فليمون المقاري ودُفن، ولم يشعر أحد بأنه انتقل من هذه الحياة الفانية. قال أحد رهبان الدير إن بعض عمال الدير ضربوه وأخذوا منه بعض النقود، وجرحوه في جبهته، ولكنه لم يشتكِ ولم يتحدث عن الاعتداء عليه. وتمرُّ سنوات طويلة بعد نياحته، عندما بدأت أشعر بضرورة الكتابة وتدوين ما سمعته، فقد جاءت الأحداث كلها لكي تؤكد صدق وصحة ما كان يتحدث عنه.

قال الأب فليمون: «تبدأ الكبرياء برفض وصية الله. هكذا سقط آدم وحواء، وهكذا يسقط كل متشامخ. ورفضُ الوصية هو رفض طريق الحياة والسعي وراء الموت. ورفضُ الوصية مرجعه تشامخ الفكر. وسقوط الإنسان سببه الأول هو عدم الثقة في أحكام الله، لأن الوصية هي حكمٌ بالحياة، وتعدِّي الوصية هو حكمٌ بالموت».

وكان المزمور الكبير، مزمور ١١٩ هو أحب قِطع صلاة السواعي عنده، لم يكن فقط مجرد مزمور في صلاة نصف الليل، بل كان مزمور حياته كلها. هكذا وَصَفَ هذا المزمور بأنه «حصنٌ عظيم لا يقدر التشامخ ولا الكبرياء أن تدخله». وكان هذا المَثَل: «الإنسان المتمسك بوصايا الله ويحفظها هو في برج حصين، ولذلك يقول المزمور إن اسم ربنا يسوع المسيح هو برجٌ حصين يدخله الصديق ويجد فيه المناعة. والشيطان شاطر يحتال للدخول ولا يستطيع، ولكنه يبدأ «بموال» الغواية، يقول في أول الموال إن الحصن غير قوي، وأنه يوشك أن يسقط، وأن الخلاص في أن نترك الحصن. ويدوم «الموال» عندما يحاول الماكر العنيد أن يُقنع الإنسان بأن يخرج من الحصن ويصوِّر له أن النجاح والقوة في طلب الخلاص بواسطة الوسائل البشرية والسعي نحو النجاح. وعندما يخرج الإنسان من حصن وصايا الله يجد نفسه أعزلاً عرياناً بلا سلاح، ويصبح

مِثل الابن الضال الذي ترك بيت الآب وسار وراء الوحش الكذاب القاتل الشيطان، ولكن رحمة الله أدركته لأنه أدرك أن عودته لبيت الآب -ولو كعبدٍ- هي الخلاص الحقيقي.

ما هو الفرق بين آدم الأول والابن الضال؟ الأول كان في الفردوس، والثاني كان في بيت الآب، كلاهما كان في حصن الله، وكلاهما كانت له المناعة في الوصية المقدسة. وكلاهما ترك الحصن المنيع وسار وراء أحكام فكره المتشامخ، وكلاهما سقط وتعرَّى.

الفرق الحقيقي هو عودة الابن الضال، بينما لم يتحدث الكتاب المقدس عن توبة آدم، ولكن حسرة وندم آدم، ونواح آدم وحواء هو حقيقة ظاهرة يعرفها كل من ضُرِبَ وتعرَّى وفَقَدَ كرامته" .

وصَمَتَ الأب فليمون، وبدا لي وكأنه يستعيد ذكريات خاصة، وقال وهو يكاد يختنق بالدموع: «إن الإنسان لديه ميل طبيعي لأن يصدق أحكام فكره وينكر أحكام الله، ولكن رفض وصية الله لا يَظهَر للإنسان كرفض، بل يظهر كحكمة وقوة وعِزَّة وفائدة، ولكن عاقبة كل هذا هي الابتعاد عن الله، وترك وصاياه، وتعرِّي الإنسان الحقيقي هو التعرِّي من النعمة».

وكان كَمَن يتحدث عني وعن آخرين أعرفهم، ونظر لي في شفقة وقال: «يا أخ، المتواضع الحقيقي يجد راحته في فكر المسيح، وفكر المسيح هو في حَمْل الصليب، فقد وضع الرب قانون التلمذة الصالح في عبارة واحدة سهلة تحتاج إلى حياتنا كلها لكي ندرك معانيها: «مَن أراد أن يكون لي تلميذاً فلينكر نفسه، ويحمل صليبه ويتبعني»، **وإنكار الذات هو في طلب فكر المسيح، والتخلي عن الفكر الخاص والأحكام الذاتية التي تصدر من الذات وتصبح شريعة خاصة.** هكذا نرى الانقسام، حتى في مجمع الرهبان، لأن كل إنسان يفتِّش عن مصالحه وينسى مصلحة أخيه، وكل إنسان له قانونه الخاص الذي لا يمُت بصلة إلى قانون التلمذة الذي قدَّمه المسيح، ولذلك يجد العدو الماكر العنيد فرصته، لأننا نحيا

مثل الابن الضال؛ كل واحد له قطيع خنازير، أي شهوات قلبه النجسة. ومع ذلك، فكل واحد يظنُّ أنه على صواب. الدنيا كلها مخطئة ما عدا المتكبِّر والمعتز بأحكامه العقلية. هكذا نسقط دون أن ندري أننا تركنا اللّه مصدر الحياة، وتركنا الصليب الذي وُضِعَ على أجسادنا في رشومات الميرون، وهو ختم الروح القدس الذي ينتظر في أناةٍ ومحبةٍ وشفقة لكي يدخل إلى قلوبنا ويحصِّن حياتنا بالوصية.

المتواضع الحقيقي هو الذي يثق في أن وصايا اللّه هي للحياة. أما المتواضع الكاذب، فهو الذي يضع تفسيره الخاص للوصية، ويجعل رأيه أعظم من وصية اللّه.

المتواضع الحقيقي يُدرِك أن وصية اللّه تقول له: «مَن ضربك على خدك الأيمن فحوِّل له خدك الأيسر»، ولم تترك الوصية أي منفذ لأي تفسير. لم تذكر سبب الضرب أو ظروفه أو سبب الشجار، ولكنها حددت نقطة واحدة، وهي أن الاعتداء لا يُقَابَل باعتداء، لكي تنقذ الإنسان من فخ الكراهية. طبعًا نحن نشعر بالألم، ولكن ما أكثر أنواع الألم. الذي يشعر بأن الاعتداء عليه هو إهانة لكرامته قد أخذ كرامته من الناس، ولذلك يوجعه الضرب داخليًا أكثر من وجع الجسد، وماهي الكرامة التي يعطيها لنا الناس؟ هي كرامة مؤقتة وكاذبة، لأننا بمجرد أن نختلف معهم، يدوسون هذه الكرامة أو يسحبونها منّا، وعند ذلك نشعر بالوجع.

المتواضع الحقيقي هو مَن يضع اللّه كغاية لحياته، فهو ملتصق باللّه، ولذلك يجد في اللّه سعادته ولا يشعر بأن ما يُقال عنه له قيمة أو غاية. إذا شئت أن تتعلم التواضع الحقيقي تأمَّل حمار الدير، تجد العمال يضربونه ويشتمونه ويقولون له: «يا حمار»، وهو طبعًا حمار وراضي بأن يكون حمارًا وينال ضربًا موجعًا، ومع ذلك ترى في عينيه الوداعة ولا يَرُد ولا يؤذي، هو سعيدٌ بما ناله من اللّه. هكذا قال لي واحد من شيوخ الدير: «يا فليمون إذا كنت عاوز تعرف السلوك الرهباني الحقيقي ومالقيتوش عند الناس، بُص لحمار الدير وأنت تتعلم منه التواضع الحقيقي». ولذلك

كنت أقف عند باب الدير ورأيت وداعةً حقيقية وصمتًا في عيني الحمار، فأدركت أنني وجدت المثال الصالح الذي يجب أن أتعلم منه التواضع الحقيقي.

أمَّا المتواضع الكاذب، فهو مثل الكلب الضال الذي يفتِّش عن طعامه في أي مكان، ولا يرضى بأن يجد سعادته في صحبة سيد يطعمه ويهتم به، ولذلك يجري من مكان لمكان حتى يموت ضالاً فريسةً لأحكام فكره.

المتواضع الحقيقي إذا أخذت منه أي شيء له قيمة مادية، لا يحزن بالمرة لأن قلبه في الأمور الأبدية، ولذلك قد يجد سعادة وعزاء في أنه فَقَدَ شيئًا».

وسألتُ الأب فليمون: هل يمكن للإنسان أن يقتني التواضع وأن يتعلَّمه؟ فقال لي في صرامة واضحة: «غير ممكن بالمرة»، لأن قلب الإنسان البعيد عن الله، هو حالة كل إنسان بعد السقوط، وهو حالة كل مسيحي نال سر المعمودية والميرون، ولكنه لا يحيا حسب وصايا الله. أنت كَمَن يقول هل يملك طفل صغير أن يحمل حجرًا كبيرًا؟ والجواب: طبعًا لا، ولكن متى كَبُرَ الطفل وصار شابًا قويًا، فإنه يحمل الحجر». وقلت له: كيف يكبر الطفل؟ فقال لي: «إقرأ عظة القديس أثناسيوس الرسولي، وتجدها في الساعة الحادية عشر من الجمعة الكبيرة وبدايتها: «يعلِّموننا في الكتب المقدسة»، وتجد أن هذه العظة هي دستور الحياة المسيحية كلها، لأننا عندما نُلازم سماع الكتب المقدسة والحياة في البيعة الأرثوذكسية، فإننا نجد كيف ينمو الطفل، لأن القوة التي فينا هي أعظم وأقوى من العالم والشيطان وكل جنوده، لأنها قوة المسيح الحي القائم من بين الأموات. ومَن يثق في أن المسيح رب المجد غَلَبَ الموت، يطلب الالتصاق به لكي ينال منه وفيه ومعه الحياة. **هذه هي بداية التواضع أن يلتصق الإنسان بالمسيح، ويُحب شريعة الصليب ويجد فيها السلام والفرح الحقيقي، لأن الصليب يعرِّي الإنسان مِن المجد الكاذب**، ولذلك صُلِبَ

الربُّ عريانًا بعد أن وزَّع الجنود ثيابه. تجرَّد حتى من الملابس لكي يُظهر لنا تجرُّد المصلوب عن كل قنية. لم يكن فكره في العُري، ولكن كان فكره مع الآب.

في الأعياد، يَذبَح الدير خروفين، وأحيانًا خروفًا واحدًا. ومرة رأيتُ الخروف المذبوح معلَّق في «السيبة»، والخروف الثاني واقف وشايف دم أخوه وشامم ريحة الدم، ومع ذلك بياكل برسيم في هدوء وفي وداعة، فأدركتُ كلام النبي إشعياء عن رب المجد: «كحملٍ سِيق للذبح ولم يفتح فاه». هكذا صَمَتَ الرب أمام الذي يجزّه، ولم يُعانِد، وأدركتُ أن الوداعة هي أن يتحصن الإنسان بوصايا الرب ويقبلها كما هي دون أن يفتِّش عن المناسبات التي تجوز فيها الوصية والمناسبات التي لا تجوز فيها الوصية.

عندما تأمَّلت خروف الدير المذبوح والآخر الحي، أدركتُ أن القلب المنقسم على نفسه لا يحقق شيئًا، بل يفقد كيانه، ولذلك السبب قال الرب: «الذي عنده يُعطى ويزاد، أمَّا الذي ليس عنده، فالذي عنده يُؤخَذ منه»، هكذا القلب المنقسم يفقد ما لديه لأنه لا يحرص عليه، أمَّا الذي عنده غاية واحدة، وهي الرب نفسه، فهو ينال الكثير. **هكذا مَن كان عقله ثابتًا نحو غاية واحدة، يستهين بكل ما يحدث له. أما المنقسم على ذاته، فيجد في كل الأمور صعوبات**، وهي صعوبات نابعة من شهواته ومطالبه لأنها تصوِّر له الأمور على غير حقيقتها. وصعوبات يضعها العدو في طريقه لكي يرُدَّه عن طريق الرب، ولكن الحروب الخارجية التي من العدو هي أقل وأضعف من الحروب الداخلية التي تُولَد من صراعات وانقسامات القلب، لأن الضعف الروحي كامن في القلب، ويحرك الإنسان في كل اتجاه بلا هدف واضح، لأن الشهوات متعارضة، ولذلك قال الرب إن مملكة الشيطان لا تثبت لأنها منقسمة. السرقة ضد شهوة التسلط، والكذب ضد الكبرياء، الكراهية ضد الزنى. فكل رذيلة لها أسلوبها الخاص بها. اللص يكره أن يسرقه لصٌّ آخر، لأن السرقة ضد شهوة التسلط. والكذاب لا يمكن أن يقبل المتكبِّر، وإذا كذب عليه إنسانٌ

آخر، تحرَّكت كبريائه، وإذا خُدِع يغضب. والكراهية عدو الزنى، لأن الذي يكره لا يمكن أن يزني مع من يكره.

وقد يجد الإنسان في رذيلة معينة سعادة وقتية، ولكن إذا انتقل إلى رذيلة أخرى وجد أنها تتعارض مع الرذيلة الأولى. هذا هو انقسام مملكة الشيطان، ولذلك لا تثبت هذه الرذائل، وتؤدِّي في النهاية إلى الموت الروحي الأبدي».

عندما خرجتُ من قلاية الأب فليمون، قابلني أحد الأشخاص وقال لي: لماذا أنت مهتم بالكلام مع هذا العبيط الساذج الذي لا يفهم شيئًا؟ وقلت له: هو لا يفهم ما نفهمه، ونحن لا نفهم ما يفهمه.

الكذب؛ المرض الذي يؤدي إلى الموت

جلسنا في القلاية ذات صباح بارد في يناير ١٩٦١ بعد عيد الغطاس، وكان الحديث عن الكذب.

قال الأب فليمون: «الكذب مرض يحرم الإنسان من قوة عمل روح الحق، الروح المعزِّي البارقليط. ومع أن الروح القدس يسكن فينا جميعًا، إلاَّ أن سكناه فينا تتعطل بسبب عدم التصاقنا بالحق، ويصبح الروح القدس مثل بذرة حية تنتظر المطر، أي دموع التوبة وعودة الإنسان إلى اللّه».

ومرَّت لحظاتٌ من الصمت، كنتُ أسمع فيها عويل الرياح وهي تعبر بحر رمال شهيت، وامتزج صوت الأب فليمون بصوت الرياح. قال: «الخطايا كلها من جوهر واحد، وهو الابتعاد عن اللّه. وترك الوصايا هو العلامة الأكيدة لهذا الابتعاد. والخطايا كلها متساوية، لا توجد خطية أعظم من خطية أخرى. الكذب مثل الزنى والقتل، لا يوجد بينها فرق سوى أننا في حالات الزنى والقتل نجد الآثار المادية للشر، أمَّا في حالات الكذب، فإننا لا نجد له سوى الآثار الروحية القاتلة. ولذلك، لا يهتم المبتدئين بالكذب ويصرفون الوقت في ترك الزنى وشهوات الجسد غير عالمين أن الكذب هو الأخ الأول للزنى والقتل. الخطية هي تزييف لكيان الإنسان «زَيّ العُملة الفالصو» لها صورة وملامح العُملة الحقيقية، ولكنها بلا قيمة بالمرة. كان شيوخ الدير يقولون: الكذب «عُملة برانية» لا يجب تداولها عند التاجر الحكيم الذي يرغب فعلاً في الملكوت" .

واختلج صوته وهو يتكلم. كان كَمَن يحسُّ بألم لا يمكن التعبير عنه، ثم نظر إلى الأرض وكأنه يتذكر تراب الأرضً الذي جُبِل منه الإنسان. ربما كان يصلي، وربما مرَّت ذكريات أليمة لا يريد أن يُفصِح عنها.

وعاد إلى الحديث ليقول: «عندما سمعتُ عبارة سفر الرؤيا التي تقول إن الخائفين والكذابين لن يدخلوا ملكوت السموات، وليس لهم مكان في أورشليم السماوية ارتعبت، لأننا نعيش حياة اجتماعية تتساهل مع الكذب، ولذلك لا ننمو روحيًّا. وعندما يصبح الكذب والخداع تصرفًا مقبولاً لا يُقاوَم، نجد أنفسنا أمام كوم كبير من الشر لا نحس بخطورته، ولكنه يصبح مثل كوم الزبالة الذي يتعفن وينشر رائحة العفونة، ويجعل حياتنا زائفة.

الكذاب لا يؤمن بأن الله هو إله الحق. والكذاب قطع شركته مع روح الحق، الروح القدس. والكذاب يتحول في النهاية إلى منافق، ويفقد ثقته بنفسه، ويصاب بالعمى الروحي الذي يجعله عاجزًا عن تمييز الصواب من الخطأ، وإذا سمع كذبةً لا يُدرِك أنها كذبة، لأن حاسة التمييز الداخلية عنده مصابة بالعمى الروحي. وهكذا بالتدريج، يفقد طريقه إلى قلبه، ويتعذَّر عليه أن يميِّز ما يريد، حتى تدركه نعمةُ الله، وتلقي به في تجارب ومحن وآلام لكي يفيق من الغفلة، وينال الاستنارة من روح الحق».

ونظر إليَّ وقال: «**هل تعرف لماذا يتعذَّر علينا أن نميز الكذب من الحق؟**»

فقلت له: «لا أعرف». فقال: «**إن عدم التمييز مصدره الحقيقي هو انقطاع الصلة بين روح الحق وقلب الإنسان**. هذا يشبه إنسانًا يريد أن يغلي بعض الماء، ولكنه يضع هذا الماء في وعاء ثم يتركه بجانب النار، فينال الماء بعض الدفء، ولكنه لا يغلي، هكذا كل مَن يكذب، حتى إن اشتهى محبة الله وطلب نار المحبة الإلهية، لا يحصل عليها، لأن قلبه بعيد عن حرارة محبة روح الله».

ومرَّت دقائق من الصمت جعلتني أشعر بأن الحديث قد انتهى، ولكن كان الأب فليمون قد أشار إلى حاسة التمييز، وهي عندي هي «الضمير»، وكنت أودُّ أن أسأله عن معنى العبارة ... ولكنه قام، وقال لي

إنه ذاهب إلى كنيسة الشهداء، وهي كنيسة صغيرة في دير الأنبا مقار دُفِن فيها رُفات ٤٩ شهيدًا من شيوخ البرية قتلهم البدو الرُّحَّل الذين كانوا يجولون في صحراء مصر من ليبيا ...

وقال لي: «رُوح عند الـ ٤٩ شهيد وقول لهم أنا مش هكذب أبدًا، لأن الكذاب لا يستحق نعمة إكليل الشهادة».

وذهبنا معًا إلى كنيسة الشهداء، وتركته هناك وعُدتُ إلى المضيفة.

الموت الروحي -١

مرَّ على وجودي في الدير يومان لم أرَ فيهما أحدًا، فقد كان عدد رهبان الدير لا يزيد على عشرة ... ولم أشعر برغبة في الحديث أو السؤال، فقد سمعتُ ما فيه الكفاية. ولكن بعد صلاة الغروب كان الأب فليمون واقفًا تحت شجرة كبيرة قريبة من كنيسة الشهداء، وكأنه يريد أن يتحدث معي، وهكذا وجدت في نفسي شجاعةً كافيةً لأن أتجه نحوه، ولمحني وابتسم في وداعة. وكأنه يقرأ أفكاري الداخلية، قال لي: «أنا عارف أنت عاوز تعرف حاجتين: الحاجة الأولى هي حاسة التمييز، والحاجة الثانية فكَّرت فيها ولكن أنت مش حاسس بأهميتها، وهي الموت الروحي. والحاجتين دول لا يمكن فصلهما عن بعض ... وَسِرنا هذه المرة في اتجاه الباب الرئيسي، وخرجنا من الدير إلى الصحراء الواسعة الكبيرة في اتجاه أطلال بقايا مباني قديمة تُعرَف باسم «دير البنات»، وجلسنا على الرمال، وقال: «البرية واسعة زَي السما، والأسقيط مليان رمل بيفكرني دايمًا بمحبة ربنا، كل ما تأخذ منها تزيد، لو جَت مصر كلها وأخذت من رمل البرية هتلاقي الرمل مِش هيخلص. محبة ربنا للخطاة بشكل خاص، أكبر من السماء، لأنها هي اللي عملت السما، علشان الخروف الضال. وهي اللي خَلِّت ابن اللّه يتجسد. شوف يا أخ، الحق زَي العُملة، على وش واحد تلاقي اسم الحكومة، وعلى الوش الثاني تلاقي القيمة. كل حق من اللّه عليه ختم اللّه، وكل ختم من اللّه له قيمة عند اللّه، ولذلك تجد أن الموت الروحي أوله العمى، وآخرته نار جهنم. لو أنا وأنت بدون بصر، نتوه في البرية، ولو كنّا عميان وأردنا الرجوع إلى الدير، تعذَّر علينا الرجوع، لأن الأعمى لا يعرف طريقه.

يقول الإنجيلي يوحنا: «اللّه محبة»، ولكن تعالى شوف إحنا عملنا إيه في المحبة الإلهية. ويقول الإنجيلي: «هكذا أحب اللّه العالم حتى بذل ابنه الوحيد»، ولكن شوف ماذا فعلنا بالمصلوب، وكيف نعامل الخطاة؟

ويقول الرب نفسه إنه كراع صالح يترك الـ ٩٩ خروف ويفتِّش عن الخروف الضال، ولكن كيف نعامِل الخروف الضال؟

الأعمى يظن أن المعاملة الرقيقة الحانية للخطاة لا تؤدِّي إلى توبة، لأن الأعمى لا يعرف أن الرفق يقودُ إلى توبة حقيقية.

يظنُّ الأعمى أن التهديد يُولِّد توبة، ولكن الرب نفسه لم يهدِّد، بل فتَّح أعين العميان روحيًّا عندما بشَّر بالتوبة وبملكوت الله، وبعد ذلك حذَّر من خطورة الموت الروحي، أي الخطية.

الخطية والموت والعمى الروحي هم معًا حقيقة واحدة لا يمكن فصلهم عن بعض. الخطية جلبت الموت والموت جلب العمى الروحي.

إذا بدأنا بالاستنارة التي تطرد العمى الروحي، لأن الاستنارة هي من عمل الروح القدس، وعندما ضَعُفَت الاستنارة في الإنسان بسبب الخطية، جاء الابن وتجسَّد لكي تصبح حياته الجسدانية (حسب الجسد) هي الحياة التي تشعُّ بنور الحق، وتفتح عيون القلوب على نور المعرفة، فينال الإنسان استنارةً من تجسُّد ابن الله، وبذلك يُشرِق فيه نور الروح القدس، ويقرِّبُه من الابن ربنا يسوع المسيح. ولذلك يقول الرب في الإنجيل: «أنا هو الطريق والحق والحياة». فهو الطريق لأنه نور. وهو الحق الذي يطرد الموت، وهو الحياة لأنه يعطي الحياة الأبدية. الطريق هو طريق واضح معروف، مِش زَي المدق، ولكن زَي الطريق المرصوف، وهو ما نراه ونعرفه ونسير فيه، وهو لذلك واضح جدًا حتى في العتمة. ولما جاء ابن الله إلينا صار الطريق واضحًا جدًا، وجاء الرب لكي يعطي استنارةً ويفتح عيون البشر على حقيقة الحياة.

كيف جَلَبَت الخطية الموت؟ والجواب: «الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس». كان إبليس هو الذي أراد أن يجرِّد الإنسان من الحياة ويجعله يتعرَّى من النعمة. كيف؟ لأن التعرِّي من النعمة يبدأ بالكذب وترك الشركة مع الله. وعندما يقول سفر التكوين إن آدم وجد نفسه

عريانًا، فهو يؤكِّد لنا أن الإنسان الذي يترك الشركة مع اللّه يفقد رؤيته لنفسه، يُصاب بالعمى، ويصبح مظلِمًا مثل الشيطان، والعمى هو أول علامات الموت الروحي. عندما أخطأ آدم تحوَّل من صورة اللّٰه المملوءة حياةً إلى صورةٍ بلا حياة. ظلَّت ملامح الصورة موجودة داخل برواز الوجود، ولكن كانت معالم الصورة قد تغيَّرت وصارت قاتمة. هكذا كانت حالة آدم؛ أراد أن يصبح إلهًا مثل الشيطان، ومن هنا صار الاهتمام بالذات، والمحبة المفرطة للذات هي طريق الموت. تحوَّلت المحبة فينا بسبب الخطية إلى إفراطٍ وتهور، ولذلك عجزنا عن فهم محبة اللّه.

ضَرَبَت الخطية ذكاء وحكمة الإنسان زَي واحد قلع عينيه، ووجد الدنيا بعد ذلك مظلمة، ولكنها في حقيقة الأمر ليست مظلمة، وإنما هو الأعمى الذي لا يرى.

وضَرَبَت الخطية تصوُّر الإنسان لنفسه؛ خَلَقَت فيه صورة غير حقيقية عن كيانه. وكانت غواية الشيطان هي أول انحراف في محبة الإنسان لنفسه. كيف يمكن أن أُصبح مثل اللّه؟ وكيف أستطيع ذلك وأنا مخلوق من العدم؟"

كادت دموعه تسيل وهو يتحدث عن آدم. كان آدم ماثلاً أمامه ... كان هو وأنا وكل البشر هم آدم ... ووضع يده في الرمل وقال: «نحن مثل الرمل أمام اللّه. كل واحد مِنّا لا يزيد حجمه عن هذه الحَبَّة الصغيرة التي يتعذَّر علينا أن نمسك بها. آدم ضئيل جدًا في المعرفة وفي الحياة وفي كل شيء، ومع ذلك أراد أن يصبح مثل خالقه. هكذا دخل الكذب والخداع، وهكذا تسرَّب إلى حياتنا الشك في الحقيقة، والوهم والخوف، لأن الإنسان حدَّد لنفسه وجودًا زائفًا غير الوجود الحقيقي الذي أراده اللّه لنا».

وتوقَّف عن الحديث، فقد كانت عتمة المساء تقترب، وقال يجب أن نعود إلى الدير، وسوف نُكمل الحديث بعد ذلك، وَسرنا في اتجاه الدير، وودَّعني وتركني وفي قلبي ألمٌ وفرحٌ معًا ... فقد بدأتُ أُدرك حقيقة الفرق بين الموت والحياة.

وعندما دخلنا من باب الدير قال لي الأب فليمون:

«المسيح إلهنا هو حياتنا، وهو الذي يكشف لنا عن كل شيء، ومَن يطلب منه الحياة يجدها».

الموت الروحي -٢

كان يراقب الظِّل في حديقة الدير، وقال لي إنه صلى ليكون مثل الظل، يتحرك في بطءٍ على وجه الأرض، ولا يحرِّك الرمال، ويمضي مسرعًا مع الغروب .. وكانت كلمات المزمور: «أنا مثل ظلٍّ مائلٍ» تُحرِّك قلبه للبكاء وطلب الرحمة ..

هكذا عُدنا إلى الحديث بعد الزيارة القصيرة إلى أطلال دير البنات، وبدأ هو الحديث وقال: «الميت لا يحس لأن الحياة توقفت في جسده، والميت روحيًّا لا يحس بالرحمة ولا يشتاق إليها ولا يفكر فيها. قساوة القلب من علامات الموت الروحي. وقساوة القلب من البغضة والكراهية. أعتقد أن بداية سقوط آدم كانت في أنه فَقَدَ محبته لله. مَن يشتهي شيئًا عند آخر ويسعى إليه ليأخذه، هو لا يحب هذا الآخر. هكذا تصوَّر آدم أن الله «بخيل» لا يحب أن يعطي، وأنه يريد أن يحفظ لنفسه كل الخيرات. ولذلك، أراد أن يسرق مجد الله، وأن يأخذ ولو عنوةً ما يشتهيه. الخطية أفسدت الشهوة، لأن الشهوة حسنة. ولذلك قال الرسول إن من يشتهي الأسقفية، فقد اشتهى شيئًا صالحًا، ولكن الشهوة تحوَّلت عند آدم إلى رغبة في أن ينتزع ما لا يخُصَّه، ولذلك يحذِّرُنا الرسول: «وما هو الذي لك ولم تأخذه» اختطف الإنسان مجد الله، ولم يكن مجد الله يتناسب معه، صار مثل طفلٍ صغير أراد أن يلبس «جلابية» شخص أكبر منه، وعندما أراد أن يسير «اتكعبل» وسقط على الأرض، ولذلك يحذِّرُنا الكتاب المقدس: «بداية السقوط هو تشامخ الروح». ويقول الرسول إن الخطية هي عداوة، لأننا كنّا أعداء الله في الفكر، في الأعمال الشريرة. والعداوة هي رغبة في السيطرة على الآخر وإخضاعه، وعندما نفشل، يتحوَّل الفشل إلى كراهية. تُحوِّل العداوةُ الآخرَ إلى شيء، إلى قِنية تخضع لنا، وتصبح تحت تصرفنا، وإذا فشلنا في هذا يحرِّكُنا الغضب إلى القتل والشجار والقطيعة. لقد فشل الآخر في أن يكون امتدادًا لوجودنا. هكذا أيضًا

تكبر النفس، وتصبح صورةُ الإنسان عن نفسه صورةً أكبر من الحقيقة، تحتوي كل شيء، والعالم كله مجرد جزء صغير فيها. هكذا وُلِد عدم التمييز وتحوَّلت قدرات الإنسان العقلية إلى أعداء للإنسان تُعلِّمُه الخداع والاحتيال والنفاق.

لما جاء شخص وقال للأنبا أرسانيوس معلم أولاد الملوك، إنه قد وَرَثَ أموالاً، قال له: متى مات قريبي؟ ولما عَرِف، قال له: إنه مات قبل قريبه. الموت عن العالم هو بداية يقظة روحية حقيقية. ويكشف الموت مع الرب، وبواسطة الرب نفسه، أي موتُ الصليب خداعَ الخطية. الصليب مثل النار، عندما نضع فيها «العُملة الفالصو» تظهر حقيقة معدنها الرخيص. و«العُملة الفالصو» هي فكر الإنسان وشهواته وأطماعه ورغباته وأحلامه، وهي ما تكوِّن الإنسان كله، وتجعله مثل «حوش» كبير فيه القطط والكلاب والخنازير، ويأتي الرب لكي يطرد كل هؤلاء بكلمة التعليم، ولكي ينير فكر الإنسان ويحوِّل رغباته ويصلب شهواته الرديئة.

صدقني إن قوة الغضب لازمة للالتصاق بالصليب. لو حوَّل الإنسان قوة الغضب إلى التخلي عن القنية لتَحرَّر قلبه من الأهواء. ولو حوَّل الإنسان قوة الغضب للالتصاق بالصليب وبيسوع المصلوب لاستطاع أن يجعل الغضب قوة إيجابية" .

كان الأب فليمون يتكلم كَمَن يقرأ من كتاب، وكانت الأفكار متواصلة مرتَّبة. وتحت رداء البساطة والسذاجة، ظَهَر راهبٌ قبطيٌّ حقيقيٌّ دَرَسَ الصراع الروحي وخطَطَه وأتقن الحرب الروحية، وهو هنا مثل قائد يعمل في ميدان القلب، ينقِّي هذا القلب ليكون عرشًا للثالوث. كان يضع يده على صدره ويقول في هدوءٍ شديد: «الحرب الحقيقية هنا، والبرِّية حيث جُرِّبَ الرب وقَهَر الشيطان هي هنا، وهنا جسثيماني والجلجثة والقبر، وهنا يمين الآب، أي السماء. علينا أن نحوِّل القلب إلى عرشٍ للآب السماوي حتى عندما ننتقل من هذه الحياة، نرى أنفسنا في مجدٍ المسيح ولا نوجد عراة».

وعاد ليتكلم في هدوء عن الحرب الروحية بين قوة الموت، أي قوة

الخطية وقوة الحياة. وقال: «إن قوة الخطية هي الشهوة التي تزيِّن وتصوِّر للإنسان أن حياته سوف تكون أعظم لو أخطأ وحقَّق شهوته، ولكن قوة الحياة في المسيح تُقدِّم ما هو أعظم من كل صور وخيالات الخطية. إنها تقدِّم مجد الرب، وتكشف للإنسان حقيقة ودور الألم، إذ لا يوجد تقدُّم في الحياة بدون الألم، ولذلك نختار الأسهل هربًا من الألم. ونحن نريد أن نحيا حياةً بلا ألم وبلا حزن وبأقل قَدرٍ ممكنٍ من الجهد .. هذه هي بداية الموت، لأننا عندما نهرب من الألم، نهرب من النضوج. وعندما نهرب من الألم، نهرب من المسئولية. نحن نولد بألم الولادة الذي تجوزه الأم، والرب نفسه قال إن المرأة تحزن لأن ساعة ولادتها قد جاءت. ولذلك ضَمَّ الربُّ الألم إلى الصليب، وجعله ضرورةً لا يمكن الهروب منها.

ونحن نهرب من الموت، نريد الخلود بكل وسائلنا، ودائمًا نفشل لأن الأموال والمعرفة والسلطان، وكل ما هو في هذه الحياة لا يحقِّق الخلود للإنسان. وأحيانًا تصوِّر الخطية الخلود المزيَّف للإنسان، **لأن الخطية تحاول أن تقول لنا إن تحقيق الشهوة الرديئة هو عظمة ومجد وبقاء، ولكننا عندما نخطئ، نكتشف أن الخطية مثل «القُلَّة» الفارغة التي نريد أن نشرب منها ماءً باردًا في حَرِّ الصيف، ومع ذلك نجدها فارغة.**

قساوة الخطية أنها ترد الإنسان إلى ذاته، أنها تنبُع من ذات الإنسان، وتعيد الإنسان إلى ذاته، وعندما يعود الإنسان إلى ذاته يُصبح مثل آدم عريانًا، أو الابن الضال جائعًا يشتهي طعام الخنازير. هكذا نحن في صراعنا مع قوة الموت، نخطئ لكي نترك الموت، ولكن الخطية تعيدنا إلى حالتنا الحقيقية، إلى الفراغ والعطش الذي نحسُّ به قبل الخطية، والذي يعود إلينا لكي نجد -مع الفراغ والعطش- «البُطل» الذي أشار إليه الرسول في (رومية ٨: ٢٠). عند ذلك نكتشف أن الخطية خاطئة جدًا، فقد حوَّلت ناموس الله الصالح إلى سببٍ لرفض الله. واشتعال نار العداوة في قلب الإنسان ضد الله ومحاربته للناموس الإلهي، تكشف عن «محبة الإنسان لذاته أكثر من محبته لله». ولكن لو أحب الإنسانُ الله كما يُحبُ نفسه، لَوَجَدَ نفسه على أعتاب السماء».

الدرس الأول في الحياة الروحية

هو أن نتعلم سِر الصلاة

عُدتُ إلى القاهرة، واستطعت بسبب محبة البابا كيرلس السادس أن آخذ بعض الوقت منه، وأعدت ما سمعته من الأب فليمون، فكان يسمع في فرح، وكانت الدموع تسيل من عينيه عندما كنت أقرأ له بعض ما دوَّنته بعد كل لقاء. وقال لي قداسة البابا: حاول يا ابني إنك تسمع منه عن سِر الصلاة، لأن أبونا فليمون شبه متوحِّد لم يخرج للحياة من المغارة، ولكن قلايته مثل المغارة. اختار الطريق الأوسط والمعتدل الذي يخلِّص كثيرين.

وبدأتُ أتلهَّف على زيارة الدير. كنّا نذهب بواسطة أتوبيس شرق الدلتا، وكان السائق أحيانًا يرفض أن يقف عند أقرب نقطة لدير الأنبا مقار. وفي مرة سِرتُ من «الرست هاوس» إلى الدير. وعندما ذهبتُ في عطلة أسبوع عيد القيامة، كان الدير هادئًا جدًا وخاليًا من الزوار، وبعد صلاة البصخة في صباح الاثنين عام ١٩٦٢ جلستُ مع الأب فليمون، وسألته عن الصلاة بشكلٍ عام. قلت له: كيف نتعلم الصلاة؟ ونظر إليَّ في شفقةٍ وقال:

«أنت تسأل عن أهم معارك القلب. ما يحدث في حياتنا كلها يلوّن الصلاة. ما قبل الصلاة هو الذي يحكم صلواتنا، وما بعد الصلاة هو الذي يحكم ما سوف نصليه. في بداية رهبنتي كانت صلاة المزامير هي كل شيء عندي، وكانت وصية شيوخ الدير أن نحفظ المزامير. وحفظتُ المزامير، وبدأت أُصلِّي المزامير، وكانت صلاة المزامير صعبة جدًا عليَّ، ولكنني قررت الصمود. كنت أولاً أُصلِّي بعقلٍ مشتت وأتلو المزمور دون أن أتعلم منه شيئًا، ودون أن يصبح صلاتي الخاصة، وكان هذا يجعلني أخجل جدًا من نفسي، لأنني كنتُ مع المسيح وقلبي بعيدٌ

عنه. ولذلك السبب كنت أتلو المزمور الواحد عدة مرَّات حتى يستقيم قلبي. في مرة أذكر أنني تلوت مزمور ٩١ حوالي عشر مرَّات حتى راق فكري. ووجدت نفسي أُحارب الضجر، ولذلك **نصحني أب اعترافي بأن أتوقَّف بعد تلاوة المزمور لكي أُصلي صلاتي الخاصة، وقال لي امزج كلمات المزمور بكلماتك الخاصة، وأنت تتعلم الصلاة.** ومرَّت عليَّ أيام طويلة وأنا أتعلَّم المزامير وأحفظها عن «ظهر قلب»، وبدأ عقلي يهدأ، وفكري يتعلم كلمات المزامير. **وقال لي أب اعترافي أُطلب أن يضع المسيح نار الروح القدس في قلبك حتى تشتعل بنار المحبة الإلهية، فتقوى على مواجهة التجارب والآلام، لأن نار محبة الروح القدس هي سر ثبات المؤمنين**، لاسيما الرهبان، وبدأت أُصلِّي وأنا لا أعرف ما هي نار محبة الروح القدس، لكن الرب يسوع محب البشر بدأ يكشف لي عن محبته، وبدأ يُشعل هذه النار في قلبي بالتدريج. قال لي الرب: يا فليمون، لقد ترك فليمون عبده أنسيموس من أجل محبته لبولس، وعليك أن تترك كل ما يعطِّل محبتك، لأنني أنا أُحبك محبة أبدية. وقلت له: «يا رب ماذا أترك من أجلك؟ لقد تركت الدنيا كلها وهربت إلى البرية». فقال لي: اختار أنت بنفسك ما تترك، لأن المحبة بدون اختيار هي محبة العبيد، أمَّا المحبة الإلهية، فهي محبة فيها الاختيار الحَسِن.

وبدأتُ أُفكِّر ماذا أترك، لم يكن لديَّ الكثير الذي أتركه. كان الدير يصرف لنا شهرية، وكنت أترك هذا المبلغ من المال للمحتاجين من العمال، وأكتفي بأقل ما يمكن، ولكن ذلك لم يساعدني على شيء. ومرَّة كنتُ أُصلي وقلت للرب يسوع: **علِّمني يا رب لأنني جاهل، ولا تسمح يا رب أن يكون جهلي هو سبب فشلي.** فقال لي الرب: «أترك فكرك وإرادتك وأنت تنجح». عندما سمعت صوت الرب في قلبي بدأتُ أسأل نفسي ما هو فكري الخاص الذي يجب أن أتركه، وما هي إرادتي؟ وقفت في تلك الليلة طول الليل أفحص ذاتي وأحاول أن أترك ما لا يتفق مع وصايا الرب. وفي الصباح وبعد جرس نصف الليل تعلَّمتُ السر الكامن وراء الإرادة والفكر، وهو الرغبة في الحياة؛ إمَّا حسب الله أو حسب اختيارنا

نحن البشر. كانت هذه الحقيقة البسيطة هي سِر تحوُّل حياتي كلها، لأن كل ما أفكر فيه، وكل ما أريده هو اختياري لذاتي أو اختياري للرب، وبدأت أُدرك أن اختياري لذاتي هو سر اغترابي عن الرب، ومنذ تلك الليلة بدأت أحبس نفسي أطول فترة ممكنة، لا أُريد أن أخرج إلاَّ للصلاة، ولا أريد أن أتكلم مع الناس.

وبدأتُ أُدرك أن محبتي لنفسي تجعلني أشتهي أن أكون عظيمًا مثل أنطونيوس ومكاريوس والآباء الكبار، ولكن مَن أنا الحقير؟ لقد ترك هؤلاء العظمة، فنالوا العظمة الحقيقية، وبدأتُ أصرخ في وجع قلب: يا رب أنا أسير نحو الموت والهاوية. ولذلك، بدأت أحمل حفنة تراب في جيبي، لكي أتذكَّر أنني أنا تراب، وأنني بدون نعمة الرب ومحبته سوف أعود إلى التراب.

وكان الدرس مؤلمًا جدًا، ولكنه كان ضروريًا. حتى هذه اللحظة أقول لك: لقد مرَّت عليَّ عدة سنوات وأنا هنا لم أُتقن هذا الدرس، أي أن أترك فكري وإرادتي من أجل المسيح. وعندما أذكر لك هذا الأمر، أجد تعزية خاصة لأنني أعتبر هذا اعتراف بالضعف. سوف تجوز أنت هذه النار حسب قول المزمور: «جُزنا الماء والنار وأخرجتنا للراحة»، والماء هو تعزيات ومواعيد اللّه، والنار هي تجربة اختيار الإنسان لذاته.

وعُدتُّ أسأل الرب من جديد: علِّمني يا رب ماذا أفعل، لأنني فاشل وبدونك أنا سائر نحو الموت الأبدي؟ فقال لي الرب: «أنت تعرف الوصية؛ حِب الرب إلهك وحِب قريبك مثل نفسك، لأن المحبة واحدة». وهكذا نقل الربُّ الحربَ إلى ما هو أكبر، وهو أن أُحب الرب والقريب محبة واحدة، وهي نفس محبتي لذاتي. ولست أذكر الليالي الطويلة التي كنت أقف فيها للصلاة ساعات طويلة وأنا أُحارب فكري وأطرد خيالات عقلي، وأُردد صلاة يسوع والمزامير. ولكنني تعلَّمت أول درس، وهو أنني أحاول الهروب من نفسي بالصلاة، وأحاول أن أُطيل الصلاة لكي أهرب من نفسي. وهذا يعني أنني لا أُحب نفسي، ولكنني إذا أحببت نفسي وصلت إلى ذاتي ووجدتها فارغة.

وذات يوم كنت أُصلي صلاة الساعة الثالثة، وعندما كنت أُصلي «أيها الملك السمائي المعزِّي...»، سَكَبَ الربُّ تعزيةً في قلبي، وحلَّ روح الرب في قلبي الفارغ، وأحسست أنني فعلاً أمتلئ بقوة وبفرح، حتى صرخت خوفًا من أن أضيع: «يا رب هذا يكفي». وجلست أُصلي، فقد وجدتُ أن عودتي لنفسي هي عودة إلى الرب، وأن نفسي الحقيقية هي تلك الملتصقة بالرب، أمَّا نفسي المزيَّفة الفارغة، فهي تلك التي خَلَقَتها خطاياي وشهواتي .. هنا أدركتُ كم يحبني الرب لأنه يحب هذا الإنسان الفارغ الخاطئ لكي يملأه بروحه المعزِّي. والسبيل إلى المحبة الحقيقية هي أن نحب أنفسنا كما يحبها الرب، أي أن نرى العطايا السماوية التي يريد أن يعطيها لنا الرب، فهو يعطي لنا شركة في بنوته، وشركة في ملكوته، ومعرفة بالآب وسُكنى الروح القدس ومواهبه .. هذه هي إعلانات اللّٰه لنا عن محبته لكل نفس تريد أن تلتصق به.

عُدتُ إلى نفسي لكي أُحبها كما يُحبها اللّٰه الآب في ابنه يسوع المسيح، ووجدتُ نفسي في المسيح. لم أتعلم هذا إلاَّ بعد أيام طويلة. لا أريد أن أذكر الآن ساعات الضجر والصراع للخروج من القلاية لكي أتحدث مع الآخرين وجلوسي أو وقوفي الطويل بلا ثمر، وتلاوة المزامير بلا فهم .. هذه مسائل مؤلمة جدًا لنفسي، لا أُريد أن أتحدث عنها الآن، وهي غير مفيدة.

سألتُ واحدًا من الشيوخ، فقال لي: «سِف التراب حتى تتعلم التواضع». وأخذت قوله كما هو، وبلعت التراب حتى كدت أختنق، ولكن بلا جدوى .. لقد كنتُ مثل الابن الضال الذي ترك بيت الآب .. هكذا كنت ضالاً أُفتِّش عن ذاتي بذاتي ومن أجل ذاتي، ولكنني عندما صرختُ إلى الرب وقلت له إنني أسير في طريق الموت الأبدي، ولا تسمح يا رب بأن أهلك، قال لي الرب: «لن تهلك لأنني لم أمُتْ على الصليب لكي تهلك، بل سوف تجد راحة نفسك فيَّ. تذكَّر المواعيد والعطايا، وأنت تتعزَّى، وتحب نفسك محبة حقيقية».

ساد الهدوء وحلَّ صمتٌ كنتُ أسمعُ فيه زقزقة العصافير. وقام الأب فليمون، وقال لي: «عاوز أروح كنيسة الشهداء، تحب تيجي معايا؟» وقد ذكر الرهبان، حتى في دير السريان كيف نجا الأب فليمون من عملية جراحية كان يخشاها، لأنها كانت تعني نزوله من الدير وعودته إلى القاهرة. وبعد صلاة طول الليل وهو راقد على مدفن الشهداء نال الشفاء. رفض أن يذكر التفاصيل، وقال عبارة واحدة: «إن محبة الرب يسوع هي التي جعلته يقبل شفاعة الـ ٤٩ شهيدًا، ومنذ ذلك الوقت وأنا أذهب للصلاة كلما استطعت، لأن الرب حفظني من النزول إلى العالم».

وقف طويلاً أمام الهيكل. كان يصلي، وأحسستُ أنه يصلي لأجلي أنا. وبدأتُ أُصلي، وتعبتُ من الوقوف، فجلست على الأرض أفكر فيما سمعت، وفي عودتي إلى نفسي بمواعيد اللّه وعطاياه. وسمعتُ الأب فليمون يقول: «**هربتُ من نفسي إلى اللّه، فهرب اللّه مني، وعُدتُ إلى نفسي بمواعيد اللّه، فعادت إليَّ نفسي، وعاد اللّه إليَّ**». واستقرَّت الكلمات في قلبي.

لست أدري سِر تعبي الشديد، وسِر بطء مرور أسبوع الآلام، كأنني أريد أن ينتهي الأسبوع بسرعة، وأن أرى عيد القيامة. حاولتُ أن أضع ما ذكره الأب فليمون موضع الاختبار، ولكنني فشلت. كنتُ كَمَن يفتِّش على طريقة أو منهج، وكأنه -عندما ختم حديثه بالصلاة في كنيسة الـ ٤٩ شهيدًا- يقول لي الصلاة ليست منهجًا، ولا هي طريقة، ولكن ما هي الصلاة؟

يوم الأربعاء من البصخة المقدسة لمخلصنا الصالح، وقلبي ثقيل وجسمي أثقل، والأب فليمون اختفى تمامًا، وممنوع أن أطرق باب القلاية، وحتى إن فعلت فهو لن يفتح الباب. ورغم أنه يوم الأربعاء إلاَّ أنني أكلت قطعةً من الخبز، فقد كنتُ جائعًا وطاقتي الجسمانية شبه معدومة، حتى أنني لم أستطع الوقوف أثناء تسبحة البصخة، وجلست على الأرض ..

بعد نهاية الصلاة سِرتُ إلى المضيفة، وأكلت ونمتُ نومًا عميقًا حتى سمعت دقات جرس صلاة صباح خميس العهد ..

عاد إليَّ بعض النشاط بسبب النوم. ولم أكن أتوقع أي لقاء مع الأب فليمون، ولم يحضر قداس خميس العهد، وتذكَّرتُ ما سبق أن قاله من قبل عن التناول بالنِّية، وقلتُ ربما هو الآن مع المسيح يتناول كما نتناول نحن، ولا بُد وأنه يجلس الآن في علية صهيون مع الرب ومع التلاميذ. ولعل مناسبة خميس العهد نفسها هي التي جعلتني أتذكَّر الواقعة التي كانت سبب الحوار الطويل .. وبعد القداس عُدتُ إلى المضيفة دون أمل في أن أسمع شيئًا، ولكن كم كانت دهشتي عندما جاء الأب فليمون نفسه إلى المضيفة ليسأل عني، وذهبنا إلى القلاية، وجلسنا كالعادة. كان متهللاً وفرِحًا وسلام روحي عميق يشعُّ من وجهه. ولم أَدرِ كيف أبدأ الحديث، ولعله أدرك ذلك فقال:

«**سِرُّ الصلاة في محبة الله، والصلاة بدون محبة ليست صلاة المسيحيين.** وَضَعَت الكنيسة الصلوات لكي تعلِّمنا كيف نصلي، وكيف نتقن ذلك الدرس. **ولذلك، صلوات الكنيسة هي دروسٌ يجب أن تتحول إلى درسٍ خاص يدخل إلى أعماق النفس ويحرِّك النفس نحو طلب محبة الله.**

نحن نكرر طِلبات معينة مثل يا رب ارحم عدة مرات، لأن تكرار هذه العبارة هي دواء ضد اليأس.

يجب أن تكون صلاتك الشخصية أقوى من القداسات، لأن القداس هو درس عام وضروري يجمع كل أعضاء الجسد معًا، ولكن العضو في جسد الرب، يحفظ مكانه في جسد الرب بصلاته الشخصية.

يعيب عليَّ الرهبان عدم حضوري الكنيسة، وهم على حق، لأنني أغيب لكي أبقى ملتصقًا أكثر بالرب. ويوجد فرق كبير بين مَن لا يحضر الكنيسة لأن صلاة الكنيسة أقل من صلاته، ومَن يحضر لكي يأخذ القليل الذي يستطيع أن يأكله لكي يعود ويأكل الباقي. نحن لا نفهم الكتاب المقدس إذا قرأناه دائمًا بدون انقطاع، ولكن يكفي أن يقرأ الإنسان عبارةً واحدة أو سطرًا واحدًا لكي يستقر في قلبه ويحرِّكه نحو اللّه.

مرة كنت في الكنيسة، وسمعتُ صلاة الصلح، وقلت لنفسي إنني أول مرة أسمع فيها هذه الصلاة، رغم أنني سمعتها مئات المرات. فقد استقرَّت كلماتها في قلبي، وأدركتُ منها أن الله يفرح بالخطاة، لأن الكلمات سهلة وتضرب يأس الإنسان وشموخ الفكر بقوة: «بمسرتك يا الله املأ قلوبنا من سلامك .. وطهِّرنا من كل دنسٍ وغش». وشعرتُ أنني كنت سأفقد شيئًا ثمينًا جدًا، وهو مسرة الله في طلب الخطاة والسعي وراء الخروف الضال. صلاة الكنيسة لها مكانٌ خاصٌّ في حياتنا، وإهمالها يعرضنا إلى الضياع، لكن علينا أن لا نقيس الصلاة بالكم، بل بالنوع. ورغم أنني لم أُرسم قسًا إلاَّ أنني صليت صلاة تحليل نصف الليل، وأدركتُ أن الصلاة ضرورية لكل مَن يطلب هذه الخدمة السماوية.

الصلاة مرآة للنفس، ونحن نرى أنفسنا في مرآة صلوات الكنيسة. أحيانًا نرى تعاسة وشقاء أنفسنا، وأحيانًا نرى سعادة وفرح الله بنا. مَن يهمل صلاة الكنيسة لن يتعلم شيئًا.

عندما زارنا قداسة البابا كيرلس السادس بعد اختياره قال لي: «يا أبونا فليمون صلي من أجلي علشان أنا عاوز أرجَّع التسبحة للكنيسة، لأن عدم صلاة التسبحة أضرَّ بالإيمان والعقيدة الأرثوذكسية». ومع أنني حفظت التسبحة، إلاَّ أنني بدأت أجلس كل يوم في القلاية لكي أتأمل صلوات التسبحة، كل يوم صفحة واحدة تكفي. ومنذ ذلك الزمان وأنا أبدأ صلاة باكر بالإبصالية لاسم ربنا يسوع المسيح، وبعد ذلك صلاة المزامير. ومن الإبصالية تعلَّمت صلاة يسوع وحلاوة اسم رب المجد.

لو حاولت أن تهمل صلاة الكنيسة، فأنت تسرع نحو عجرفة وكبرياء، ومَن يحتقر صلوات الكنيسة يفرز نفسه. صلاة الكنيسة «زَي الديك الرومي» لازم تأكله قليلاً قليلاً حتى تأكله كله.. والزمن يؤدِّي إلى الإتقان. أحيانًا تكفي عبارة واحدة سمعتها مرة في أوشية الإنجيل: «لأنك أنت هو حياتنا كلنا»، وصرخ قلبي في وجع شديد يطلب الرب لأن يكون حياتي الحقيقية. وفي كل مرة أسمع فيها أوشية الراقدين أتذكَّر

رهبنتي وكيف يجب أن أموت عن العالم. ولذلك أنا أحرص على حضور الجناز العام في مساء أحد الشعانين لنفس السبب.

نحن نحتاج إلى زمان طويل حتى نستوعب فيه سِر الصلاة من الدرس العام الذي نسمعه في الكنيسة، وننقل هذا الدرس العام إلى حياتنا الشخصية».

قلت للأب فليمون: إنني أشعر بالخجل، وأحيانًا باليأس عندما أُصلي وأجد فكري مشتَّتًا فماذا أفعل؟

فقال لي: «الرب يعرف ضعف الإنسان، ويفرح بكل محاولة مهما كانت من جانبنا. مرَّة كنت أعبر النيل في قارب، وكان ابن المراكبي ولد صغير بيحاول يقدِّف مع أبوه، ولكن المقداف ثقيل عليه، ولقيت أبوه بيقدِّف في بطء شديد جدًا، وبنفس قوة الابن حتى يسير القارب. وهنا أدركتُ لماذا يتمهَّل الرب علينا عندما نطلب شيئًا، إنه يريد منا أن نسير معه حسب قدرتنا، ولذلك يتمهَّل علينا. هكذا علينا أن لا نتكل على برنا الذاتي الذي قال عنه إشعياء إنه مثل خرقة الطامث. وكل مَن يدخل في شركة مع الله وفي قلبه بره الذاتي، يفشل تمامًا لأن بر الإنسان الذاتي لا يستوجب رحمة الله ولا إحسانه، وينكر وجود الله وعطفه ومحبته الخاصة للخطاة. لا تخجل من الرب كأنه لا يعرف قلبك وأسرار وجودك كله، ولكن أطلب محبته وصفحه وأنت تعرف أنه يريدك أن تصبح مثله، وأن تنال ذات الكرامة وذات المجد».

وقاطعته في دهشة: أنا هبقى زَي المسيح؟، فنظر إليَّ وقال: «أنت مش عارف كده؟»، فقلت له: لأول مرة أسمع فيها هذه العبارة. فقال: «إنها ليست عبارة، بل حقيقة، وإلاَّ ما هو فضل الإنجيل؟» وقلت: بس ده كثير، فقال لي: «هذه نعمة الله. لماذا نُصلَب ونموت مع الرب، ولماذا نقوم فيه وبه ونحيا به؟ عجيبٌ حقًا، لماذا نأكل جسد الرب ودمه، هل لكي نبقى في ذات رتبة العبيد؟

حاسِب يا أخ، لأن النفس التي لا تعرف مقدار عظمة نعمة اللّه في يسوع المسيح تسقط بسرعة في اليأس وتتراجع عن طلب مجد اللّه وتموت في خطاياها».

وهكذا بدأت أعرف أول أسرار الصلاة: **إنها مسيرة نحو مجد يسوع المسيح، وتحوُّل في كياني نحو ذاك الذي تجسَّد لكي ينقل كياننا الشقي إلى حياته ومجده** .. ومنذ ذلك الحديث صارت كلمات التسبحة: «أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له» بمثابة لحن ينقل حياتي الإنسانية الترابية البائسة إلى مجد نعمة ربنا يسوع المسيح.

كم أنا مدين لك يا أبي الراهب الذي نقلني إلى قوة وحياة الكنيسة.

كان دير السريان قد أصدر كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية، وهو الكتاب الذي أعاد إلينا هويتنا الضائعة وأنقذنا من روحانية كتب الإرساليات. كنتُ قد أكلت هذا الكتاب، ومع ذلك لم أُتقن الصلاة. لم تكن المشكلة في الكتاب، ولكن كانت المشاكل في القارئ، وكانت الحاجة إلى مقاتل مدرَّب على القتال الروحي ضرورية جدًا ..

كان قداسة البابا كيرلس السادس هو أب اعترافي، ولكنني لم أمكث معه طويلاً لأنه اُختير لكرسي مار مرقس، وفي عشية الرسامة طلب مني أن أعترف عند أبونا ميخائيل إبراهيم. ولم يذكر شيئًا عن أبونا فليمون المقاري .. ولكن بعد هذه الأحاديث الطويلة عُدتُ إلى قداسة البابا كيرلس السادس أكثر من مرة أستعيد فيها ما أسمع وأجد في تشجيعه ما يؤكد صدق رؤية الأب فليمون.

ما هو سر الصلاة؟ هو أن نتحوَّل لكي نكون مثل المسيح، تحوُّلاً تغرسه نعمة اللّه في قلوبنا، ويحركه الروح القدس.

قال الأب فليمون: «سِر الصلاة هو أن يكون الإنسان مثل القارب المستعد الذي علَّق القِلع، وينتظر هبوب الرياح. هذا ما يحدث معنا عندما تصبح قوة المجاديف بلا قيمة أمام قوة الرياح، أي عندما تصبح التلاوة غير ضرورية لأن الروح القدس يحرك الإنسان بحرية نحو أسرار اللّه».

جسدٌ بلا رأس

أرجو من اللّه أن لا ينزعج القارئ من هذا العنوان القصير المفزع، لأن الجسد الذي بلا رأس، هو جسدٌ ميِّتٌ. هكذا تكلَّم الأب فليمون عن مسألتين؛ كلٍّ منهما شائكة، وكان ردُّه على كلا السؤالين في عبارة واحدة: «جسد بلا رأس». كانت المسألة الأولى هي الجدل العقيم الذي تفجَّر بعد صدور كتاب الأب متى المسكين «البارقليط في حياة الناس»، وكان مصدر الجدل العقيم هو الكلية الإكليريكية، إذ جادت قريحة أحد أساتذتها بأن الذي نأخذه هو مواهب الروح القدس، لا الروح القدس نفسه. وتحوَّل الجدل إلى عبارة واحدة: «هل نأخذ المواهب أم الأقنوم؟» وعندما سألت الأب فليمون قال لي: «غريبٌ حقًا، أنا أسمع هذا الكلام لأول مرة في حياتي. أنا إنسان بسيط، ولكن ما يجب أن أقوله هو أن المواهب بدون أقنوم الروح القدس هي جسد بلا رأس». وكانت الإجابة شافية وكاملة.

وكانت المسألة الثانية هي الحصول على مغفرة الخطايا، وحاجتنا إلى صلاة التحليل من الكاهن، وهل إذا اعترف الإنسان إلى اللّه بدون أب كاهن ينال الغفران؟ وعندما سألت الأب فليمون قال لي: «أي إنسان في الكنيسة بدون المسيح هو جسد بلا رأس. حتى الكاهن نفسه، بدون المسيح هو جسد بلا رأس». وأغلق باب الجدال، فلم يكن يُحب الجدال، وكان يرى أن الكثير مما يُقال وينشر هو محبة للكلام والألفاظ، وليس سعيًا وراء الحقيقة.

اللفظ والحقيقة

كانت معرفة الأب فليمون المقاري بالمسيحية وبالأرثوذكسية هي معرفة اختبارية نابعة من الصلاة، وحفظ أقوال اللّه في القلب، واختبار الحقيقة كما تعلنها الكتب المقدسة. وكان الأب فليمون يذكِّرني كثيرًا بالأب القمص ميخائيل إبراهيم أب الاعتراف المشهور الذي التمس منه كل الذين نالوا أعظم الدرجات الجامعية كلمة الروح القدس. وكان أيُّ إنسانٍ عَرِف أيهما، يرى بوضوح، الصفاء والنقاوة التي يحاول كلٌّ منهما أن لاً يعلنها باللفظ، أي بالكلام .. كان السلوك والتصرف والوداعة هو الإعلان الصامت الذي يكفي.

ولعل هذه الواقعة تكشف عن العلاقة بين اللفظ والحقيقة. كنت أركب أتوبيس ٩٥ من مصر القديمة مع أبونا ميخائيل إبراهيم، وعند محطة الملك الصالح صعد إنسان متعصب وجلس مقابلنا وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، وفي صوتٍ يشبه الصراخ قال لنا: «يا قس، مش انتو والرهبان حرفتوا الإنجيل؟» وعندما لمح الأب ميخائيل إبراهيم أنني أحاول الإسراع بالرد، أمسك بيدي وقال: «يا عم الشيخ، الحاجات اللي إحنا حرَّفناها ملكش دعوة بيها، والحاجات الصح اعمل بيها». وجاء الردُّ هادئًا ولكنه قويٌّ .. ولم يسكت المتكلم، وسأل مرةً ثانية بنفس الصوت العالي: «طيب وأنا أعرف ده من ده إزّاي؟» فقال الأب الفاضل: «إذا دُقت السكر، لسانك يقولك عن السكر، وإذا دُقت الملح لسانك يقولك إنه ملح. إذا كان ضميرك مش قادر يقولك عن الصح وعن الغلط. عاوزني أنا إزّاي أقول لك؟» وسكت .. ونظر راكب آخر وقال للسائل «أُسكت من فضلك جبت لينا الكلام».

فالحقيقة تعلو على اللفظ. وكان كلاهما يتكلم عن الحاسة الروحية، وكان كلاهما يتكلم عن ضرورة إتقان «الإفراز» أو «التمييز». وكان السؤال الدائم: «كيف؟» وكان الرد الدائم: «الإفراز هو نعمة

وحكمة الروح القدس، يتعلَّمه الإنسان من الكتاب المقدس وحياة القديسين، إنه ليس درسًا مثل جدول الضرب، بل ممارسة وخبرة تُولَد في حياة كل إنسان، ولكن بداية الإفراز هي ترك اللفظ وإتقان الحقيقة».

وحسب الأب فليمون: «اللفظ الفارغ من الحقيقة هو لفظ الشيطان، يثير شهوات الإنسان الرديئة، ويحرِّضه على الشر. تجد فيه غواية ظاهرة لأنه يغري الإنسان بالقوة وبالعدوان ويحركه ويحرضه على الكراهية والبغضة. هو لفظٌ يحتوي على الموت، أمَّا اللفظ الذي ينقل الحقيقة، فهو لفظٌ يحرك الإنسان نحو الفضائل، يزرع السلام ويثبِّت دعائم المحبة، ويحرك القلب لطلب الصفح والغفران ويشجع على المصالحة».

ولذلك السبب قال لي أبونا ميخائيل إبراهيم إن الشخص الذي سأل عن تحريف الإنجيل، كان يريد جدالاً، وكان يسعى نحو الشجار، ولذلك لا يجب الدخول معه في حوار. وقال لي أبونا فليمون إن الذين يناقشون الأقنوم والمواهب هم محبو الشجار والاختلافات ولا يزرعون السلام.

الدرس الأول في الإفراز

هل يمكن أن يتعلم الإنسان الإفراز أو التمييز؟

عندما سألتُ هذا السؤال يوم شم النسيم، وكان يومًا حارًا .. قال أبونا فليمون مُعلِّقًا على تغيير درجة الحرارة: «النهاردة حر، الجو بيتغير بسرعة بعد عيد القيامة، رهبان الدير بيقولوا أصل بطرس خلاص إدَّفَّى - مشيرًا بذلك إلى ليلة القبض على المسيح وإنكار بطرس للرب وهو يستدفئ .. وقال: **الحق لا يتغير بتغيير الظروف، ولكن إدراك الحق ينمو فينا بالمحبة وبالإيمان. يظل المسيح هو الحق الواضح، ولكن الذي ينمو ويتغير هو إدراكنا للمسيح.** كان أريوس قسًّا، وكان أثناسيوس شماسًا، ولذلك أعتقد أنه كان أصغر من أريوس في السن. الأول فشل في إدراك حق المسيح رغم سنه. والثاني أدرك الحق وحارب عنه. ولقد سمعت قصة أريوس من السنكسار وتعجبت، إذ كيف يقف شخص واحد أمام مجمع من ٣١٨ أسقف، ربما وجد مشجعين وأنصارًا له، ولكن المشكلة ليست في العدد، المشكلة أنه لم يدرك حقيقة بسيطة للغاية، وهي أن المخلوق لا يقدر أن يخلِّص مخلوقًا من الموت الأبدي، لأن هذا يحتاج إلى قوة وعمل الخالق. بينما أدرك أثناسيوس أن الحق هو حق المسيح المخلِّص، ولذلك علينا أن نناقش ما نسمع ونختبره في القلب. لا يملك كائن أن يعطي لنا شركة في حياة اللّه، لا بُد أن يعطينا اللّه نفسه هذه الشركة حتى لا يقوى علينا «موت الخطية»، كما تقول الكنيسة، واللّه وحده هو الذي يقيم الأموات، أمَّا البشر، فإنهم عاجزون تمامًا عن أن يعطوا الخلاص.

هذا أول مبدأ للإفراز، أي الإيمان بأُلوهية الرب. وكل ما يتعارض مع هذا الإيمان مهما كان مصدره، لا يمكن أن يكون صحيحًا.

في مرة جاء واحد من شهود يهوه، وكان يناقش أبونا متى المقاري عن

أُلوهية الرب يسوع، وأنا كنت ماشي رايح أجيب خبز، وبعدين أبونا متى قال لي: يا أبونا فليمون، الأخ ده لا يؤمن بلاهوت ربنا يسوع المسيح. تقول له إيه؟ فقلت لأبونا متى: ده جاهل، لأن المسيح هو نور الحياة، ولما يأخذ نور المسيح يؤمن، وهو لازال في ظلمة الجهل. وبعدين الأخ ده شتمني وقال: أنت الجاهل، فقلت له: نعم. أنا جاهل، لكن إنجيل يوحنا بيقول: «فيه كانت الحياة والحياة هي نور الناس»، وأنت إذا كان فيك الحياة من المسيح، يبقى فيك نور المسيح. يا أخ، المسيح مخلصك وفاديك ولا لأ؟ قام الأخ سكت. فقلت له: المسيحي الحقيقي لـمَّا يسمع السؤال ده، يجاوب على طول ويقول نعم، وأنت سكت لأنك لا تؤمن بالمسيح».

وذكرتُ له واقعة مماثلة عندما كان قداسة البابا كيرلس السادس يعيش في كنيسة مار مينا مصر القديمة -القمص مينا المتوحد- وجاء واحد من أقطاب شهود يهوه، وكان لهم مركز قوي في مصر القديمة، ليناقش أبونا مينا، وكان النقاش حول عبارة: «المساوي للآب في الجوهر»، وكيف أنها ليست في الكتاب المقدس. و**قال أبونا مينا المتوحد**: «**إن أساس الأرثوذكسية هو في الكتاب، أمَّا البناء فهو في التقليد، وأن الكتاب بدون التقليد لا يكفي، لأن التقليد هو شهادة الآباء**. وقال أيضًا إن شهود يهوه لا يمارسون عشاء الرب، ولذلك هم ينكرون -بعدم الممارسة- **أن الرب يسوع يعطي الحياة في جسده ودمه، ومَن لا يؤمن بعطية الحياة هو لازال تحت سلطان الموت ولا يدري أنه تحت سلطان الموت**».

هكذا كان الإيمان بلاهوت الابن عند هؤلاء هو إيمان بمصدر الحياة، أي ربنا يسوع المسيح، ولذلك صار ما يعطِّل الحياة مهما كان، هو إنكار لعطية الآب السماوي، فكل ما يقال ضد عطية الحياة ليس من الله، وكل تعليم لا يؤكد أن الابن ربنا يسوع المسيح جاء لكي يعطي الحياة هو تعليم خاص بالموت.

الدرس الثاني في الإفراز

قال الأب فليمون: «يقول الرسول: «امتحنوا الأرواح وتمسَّكوا بالحَسِن». وقال الإنجيلي يوحنا إن أرواح ضلال كثيرة خرجت لكي تعلِّم الناس أن يسوع المسيح ابن الله لم يتجسد وتنكر قوته الإلهية. ولذلك، فإن كل ما يقرِّبنا من المسيح ويوحِّدنا به، هو من الله. وكل ما يفصلنا عنه مهما كان، هو ليس من الله، بل من الشيطان.

المحبة توحِّد، والخطية تفرِّق، ولذلك قال الإنجيلي يوحنا عن الهراطقة: «لو كانوا منّا، أي من المسيح، لبقوا معنا في المسيح، ولكنهم منّا خرجوا لأنهم تركوا الإيمان.

عندما نختلف مع الآخرين، ليكن لدينا إفراز، لأن الخلاف على القنية والأمور الشخصية مصدره الشهوة، أمَّا الخلاف على الثالوث وأُلَوهية الرب وسكنى الروح القدس فينا والدينونة والحياة الأبدية، فليس من الأمور الشخصية، ويجب أن يكون الاختلاف من أجل الحق، لا من أجل لفظ أو عبارة. وإذا وجدنا أن الاختلاف من أجل الحق يثير فينا الكراهية، لنطرح الكراهية والخوف ونمد حبال المحبة للآخرين».

الدرس الثالث في الإفراز

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -١

عُدتُ إلى الدير في يوم حار جدًا في شهر يوليو ١٩٦٣. وسِرتُ من الطريق الصحراوي حتى وصلت إلى الدير في حالة من التعب والحر، وكنت قد حملت معي «زمزمية» مياه تحسُّبًا للحر والعطش.

كنتُ مصرًّا على مواصلة الحديث عن الإفراز، وكانت معي كراستي التي كتبت فيها كل ما سمعت، وكنتُ أودُّ أن أقرأ ما كتبت للأب فليمون، ولكنني كنت أعرف أنه قد يغلق بابه إلى الأبد، فهو لا يحب الشهرة، ولا يحب أن يظهر حتى كمعلم.. وماذا أفعل إذا كان حمار الدير هو مثال التواضع عند إنسان لا يتكلم إلاَّ قليلاً جدًا؟ ... وهكذا فضَّلتُ السكوت، ومراجعة ما يقول في الأحاديث، بدلاً من مراجعة نص...

لم يكن الأب فليمون يخاف أي شيء، فقد كانت له صداقة غريبة مع عقارب الدير، ولم تكن تؤذِه. وعندما ذاعت قصة تسلل عقرب تحت الجلابية أثناء صلاة نصف الليل وكيف أمسك به ووضعه خارج الكنيسة، بدأ يتظاهر «بالعبط».

كان المسيح هو كل شيء في حياته. وقال إن الحديث عن الرب إذا لم يكن محرِّكُه اشتعال نار محبة المؤمنين للمسيح، فهو حديثٌ باطلٌ، أي بلا هدف.

وقال إن دراسة اللاهوت والكتاب نافعة، ولكنها يجب أن تكون من أجل الله، لأن الافتخار بالمعرفة هو سبب سقوط الشيطان. وقال في

ألم ظاهر على وجهه إنه كثيرًا ما تأمَّل حالة أريوس ونسطور، كان الأوَّل قسًّا والثاني بطريركًا، وهلك كلاهما في أتون الهرطقات. ولعل السبب الأول والأخير هو العظمة الكاذبة التي يسعى إليها الإنسان مع نعمة الكهنوت. الكهنوت لا يؤدي إلى الهلاك، بل هو نعمة ربنا يسوع المسيح، ولكن الذي يأخذ هذه النعمة لنفسه ويجعلها مركزًا ووظيفةً من أجل أغراضه الشخصية، يهلك.

كانت قلاية الأب فليمون رطبة بالنسبة إلى الفناء الصغير الذي كان يحيط بالكنيسة الكبيرة. وكنت أشعر بسلامٍ من نوعٍ خاص عندما كنّا نجلس. وطوال معرفتي به، تجنَّبتُ الحديثَ عن المسائل الشخصية، حتى الأمور التي تخصني أنا، حتى لا يغلق باب الحديث، وهكذا لم أحاول أن أعرف شيئًا عن طفولته أو شبابه. سمعتُ أنه دخل الدير وعمره ١٤ سنة، ولم أتحقق من هذا، حتى لا أُسبِّب له أي إحراج، وحتى لا يغلب تواضعه فضولي...

قال الأب فليمون يجب أن نميِّز في الإيمان الأرثوذكسي ثلاثة أعمدة هي أساس كل شيء. أولاً: الثالوث. ثانيًا: التجسُّد. ثالثًا: الروح القدس.

وقال إن مَن يبدأ بالتجسُّد يصل إلى الثالوث. ومَن يبدأ بالروح القدس يصل إلى التجسُّد ومِن التجسُّد يصل إلى الثالوث، ومَن يبدأ بالتجسُّد يدرك **أن تجسُّد الابن هو اتحاد اللاهوت بالناسوت في رب المجد. هذا الاتحاد هو مقياس كل شيء في الحياة الروحية الأرثوذكسية.**

تفصلُنا الخطية عن الله، ولذلك كان تعليم كل الهراطقة يؤدِّي في النهاية إلى انفصال الإنسان عن الله. إذا أنكرنا أُلوهية الرب مع أريوس، لم يعد لنا رجاء في المخلِّص، لأن المخلِّص صار مجرد إنسان مثلنا، بينما تقول الكنيسة الجامعة: «شابهنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها»، لأنه جاء لكي يبيد الانفصال، أي الخطية، ويردُّنا إلى الحياة.

الإيمان بأُلوهية الرب يسوع المسيح هو أساس كل شيء. وحتى عندما

نتكلم عن التجسُّد، فالحديث باطل من أساسه، إذا لم يكن الحديث عن تجسُّد الرب، لأن التجسُّد لا يخص بشرًا مثلنا، بل الإله ابن الآب الوحيد. هذا هو عامود الإفراز الذي بدونه نهلك هلاكًا أبديًا، لأن الإيمان بأُلوهية الرب هو إيمانٌ بكل شيء. بدون أُلوهية الرب، لا توجد أسرار كنسية، وحتى الرهبنة نفسها تصبح فارغة من كل معنى أو مضمون. لم يكن أنطونيوس قد ترك العالم وباع أرضه من أجل إنسان، ولم يكن مقاريوس وباخوميوس يؤمنون بإنسان مثلنا، بل بالرب. لماذا نصوم يومي الأربعاء والجمعة، والصوم الكبير، وصوم الميلاد؟ لأننا في شركة مع الرب (ولم يذكر الأب فليمون لائحة بأصوام الكنيسة لأنه كان يصوم دائمًا، وكان يأكل البقول فقط وخبز الدير، وكان يعطي ما يقدَّم له من لحوم أحيانًا إلى قطط الدير).

وتجسُّد الرب هو أساس إيماننا بالصليب والقيامة، لأن الذي صُلِبَ ومات هو الناسوت، وهو الجوهر الذي نشترك نحن فيه مع الرب، لأن الرب هو آدم الثاني الذي أخذ طبيعةً إنسانيةً وجوهرًا بشريًّا من العذراء والدة الإله. وقال إن المسيحيين الذين لا يحبُّون والدة الإله، ويتحدثون عنها بدون وقار، هم في الواقع ينكرون التجسُّد، لأن الذي يؤمن بتجسُّد ابن الله، ويفهم أن ابن الله اتحد فعلاً بجسد بشري، يظل يذكر القديسة مريم دائمًا بكل تكريم.

وقال إن الصليب ترك آثاره على جسد الرب، لأنه قام وفي جسده جروح الصليب، مع أن جسد القيامة ليست فيه جروح، إلاَّ أن الرب أبقى هذه العلامات في جسده إلى الأبد حتى نتذكر إعلان محبته، فلا صليب بدون جسد الرب، ولذلك يحمل الرب الصليب الآن في مجده، في جسده المجروح لأجلنا. وما أعظم القيامة التي جعلت الرب الحي القائم من بين الأموات بلا فساد، يقوم بجسده المجروح لأجلنا، لكي يضم القيامة والصليب معًا في شخصه، ويصبح المصلوب الحي إلى الأبد، مؤكِّدًا محبته الأبدية للجنس البشري».

ولاحَظَ الأب فليمون أنني أسمع في انتباهٍ شديد، فتوقف عن الكلام وقال لي: «طبعًا هتقول مِش كفاية الإيمان بالابن المتجسد؟ ولكن أقول لك إن كل ما جاء به الابن هو مِن الآب، ومَن لا يؤمن بذلك يهلك هلاكًا أبديًّا، لأن الرب يسوع المسيح أعلن لنا الآب والروح القدس في ميلاده من العذراء، وفي معموديته، وفي التجلي على جبل طابور، وفي موته، وفي قيامته وصعوده».

منذ ذلك الزمان، رَسَخَت هذه الحقائق في قلبي، وصارت جزءً من فكري يعود فيه الفضل الأول إلى الأب فليمون، وإلى الحديث الطويل مع قداسة البابا كيرلس السادس، حين سمع مني ما كان يدور بيننا، وكان يبتسم. وقال لي مرةً: «إذا كان أبونا فليمون بيتكلم معاك كده، لازم تسأله عن سبب الاهتمام بك أنت شخصيًا». ووعدت قداسة البابا .. وسألت هذا السؤال، فنظر إليَّ الأب فليمون وقال: «هو أبونا البطرك عارف أن وُثُقًا وشدائد في انتظارك، فكن رجلاً، لأنك سوف تدافع عن الإيمان الأرثوذكسي، وستنال شدائد كثيرة رتَّبها اللّه لك، لكي تنال الإكليل المُعدّ لك قبل إنشاء العالم».

وأعترف أنني ذُهلتُ وتسلل الخوفُ إلى قلبي .. ولكن كان حديث الأب فليمون سهلاً واضحًا لا يحتاج إلى شرح.

كان يقول عن تجسُّد الرب ومعموديته وتجلِّيه على جبل طابور وموته وقيامته وصعوده «الجبال الستة» التي بها أعاد الرب خلق العالم في ستة أعمال كما خلق العالم أو الخليقة الأولى في ستة أيام. **وكما أكمل الرب خلق العالم في ستة أيام، أكمل خلق الخليقة الجديدة في ستة أعمال**. ولذلك، نَقَلَ الخليقة الجديدة بصعوده إلى السماء، إلى مجد الآب. **هذه الأعمال الستة هي الخليقة الجديدة في بدايتها عندما تجسَّد، وفي ثباتها عندما اعتمد، وفي مجدها عندما تجلَّى، وفي إبادتها للفساد والموت عندما صُلِبَ وقام، وفي غايتها الأبدية عندما صعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب**. ولذلك السبب، إذا سمعنا أي شيء يُقال عن الرب، علينا أن نفحصه؛ هل هو من أجل الحياة والاتحاد والمحبة، أم هو من أجل

الانفصال والبغضة؟

وصَمَتَ، وكأنه يسترجع أمورًا في ذاكرته وقال لي: «كفاية لحد كده بعدين نكمِّل الكلام» ..

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٢

كان موضوع الثالوث هو من أهم ما يشغل فكري، فقد كانت موجات التعصب الديني تجمع مياه الأحقاد في مقالات وكتب طُبِعَت ونُشِرَت في القاهرة، وكانت سببَ حزنٍ وألمٍ لكثيرين، لأننا نحن أبناء مصر لا نملك حق الرد. ونالت عقيدة الثالوث طعنًا أكثر من غيرها على يد هؤلاء الذين يحفرون بشكلٍ ظاهرٍ قبر الكراهية.

كنت مشتاقًا لأن أعرف ماذا سيقول الأب فليمون عن الثالوث القدوس، وكنت قد حملت كتاب «محاضرات في النصرانية» للأستاذ أبو زهرة، وأخذته معي إلى قلاية الأب فليمون، وقال لي عندما رأى الكتاب: «ماذا يقول هذا المؤلِّف؟» وسردتُ له في إيجازٍ شديد ما يذكره، فقال لي: «عجيب جدًا، إنسان متعلِّم وأستاذ في الجامعة، ولا يدرك أن الثالوث هو إعلانٌ عن محبة الله! ماذا تفيد المعرفة، إذا كانت لا تؤدي إلى السلوك الراقي المهذب الرقيق؟ قد تتحول إلى بئرٍ من السموم، والسبب ليس في المعرفة، وإنما هو في انعدام الإفراز. كيف لا يعرف هذا الرجل وغيره، أن أسماء الآب والابن والروح القدس هي مِن العهد القديم وليست من ديانة الفراعنة؟ وكيف يمكن لإنسان لديه أقل قدر من الإفراز أن يتصور أن ديانة الفراعنة التي تؤلِّه فرعون، سوف تسمح بأن يكون كل إنسان شريكًا في الطبيعة الإلهية، ومساويًا للمسيح إلهنا؟ المشكلة الحقيقية يا أخ هي في معارك القلب الداخلية. الغل والحقد والكراهية هو عمى روحي حقيقي، ولذلك تجد كيف يدفع الغل والكراهية شخصًا متعلمًا لأن يكتب ويقول أُمورًا هو غير متأكِّد منها، وهي مجرد مشابهات رآها بعين الكراهية. الثالوث هو إعلان عن محبة الله، ولا محبة إلهية بلا ثالوث، لأننا نعرف من الرب يسوع محبته للآب، ومحبة الآب له، ومن الروح

القدس محبة الآب والابن، لأن الروح هو الذي يعطي لنا هذه المحبة عندما ننال سكناه فينا. وشركتنا في محبة الله هي شركة في طبيعة الله، لأن طبيعة الله هي محبة، كما قال الإنجيلي يوحنا. وكيف يمكن لنا أن نتصوَّر أن الإنسان يستطيع أن يشترك في محبة الآب بدون تجسُّد الابن ووساطته؟ وكيف يمكن أن تدخل الطبيعة الترابية السماء، وتحيا إلى الأبد في السماء، إلاَّ إذا كانت قد دخلت مع رب المجد وفيه؟ مَن يفكر ويتأمل مصير الإنسان الأبدي، يجد راحته وعزائه في الثالوث القدوس.

كان واحدٌ من شيوخ الدير يقول: «**الآب هو بدايتي، والابن هو خلاصي، والروح القدس هو تقديسي. أيها الثالوث القدوس ارحمنا**». وقد مرَّت عليَّ أيام وأنا أحاول أن أفهم، فقال لي هذا الأب: «الآب هو بدايتي، لأن كل شيء يبدأ بالآب، حتى الابن نفسه هو في الآب ومن الآب أزليًّا بدايته، والروح القدس هو تقديسي لأنه يحولني إلى ذات مقام وصورة آدم الجديد، ربنا يسوع المسيح، ويطبع فيَّ ذات الصورة التي أخذها الابن، لأنه وُلِدَ من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم، ولذلك يكوِّن الروح القدس فينا ذات الطبيعة التي كوَّنها للابن. والابن هو خلاصي، لأن الابن له المجد هو الذي توسَّط، وهو الذي وحَّد في كيانه الإلهي الجسد البشري، وهو الذي فتح لنا كل مقادس السماء ودخل إلى قدس الأقداس بالطبيعة التي لا تختلف عن طبيعتنا، لأنه واحدٌ معنا حسب الناسوت، وواحدٌ مع الآب حسب اللاهوت. هذا هو جوهر الإيمان الذي لا يعجب الذين يفتِّشون عن طريقٍ آخر للخلاص، وهذا الطريق الآخر مزيَّف تمامًا. **أرني كيف يمكن لإنسانٍ أن ينال شذرةً صغيرةً من محبة الله نفسه، بدون أن يتَّحد اللاهوت بالناسوت، لكي ينقل نار المحبة الإلهية إلى الإنسان؟** وأرني كيف يمكن أن يسكن الله في قلب الإنسان الذي هو دائمًا نجس، إذا لم يكن لدى الله محبة خاصة للإنسان تجعلنا نَصِفَه بأنه محب البشر؟

يبدأ إفراز جوهر الإيمان الأرثوذكسي بالتجسُّد، وينتهي بالثالوث، أو يبدأ بالثالوث وينتهي بالتجسُّد. وصدقني يا أخ، نحن **عندما نتكلم**

عن الثالوث، فنحن نتكلم عن علاقة الله بنا. وعندما نتكلم عن التجسُّد، فنحن نتكلم عن مجد الإنسان في يسوع المسيح رب المجد. وعندما نتكلم عن الروح القدس، فنحن نتكلم عن تواضع الله الأبدي الفائق وعن سكناه فينا نحن البشر. هذا بناءٌ واحد لا يمكن تقسيمه. تصوَّر أنك تريد أن تسكن في قصر عظيم إلى الأبد، هكذا أعلن لنا الله أنه دعانا إلى ملكوت ابنه، وشيَّد ذلك القصر بتجسُّد الابن الذي رأينا فيه ماذا سنكون، وماذا سنلبس، وماذا سنأكل، وكيف سنحيا، ثم زيَّن ذلك القصر بكل الجواهر والمعادن الثمينة عندما أعطانا مواهب وعطايا الروح القدس، ثم وضع عرشًا عظيمًا سنجلس عليه، وهو الحياة الأبدية، ثم بعد ذلك وضع تاج المُلك على رؤوسنا، وهو معاينة الآب والجلوس عن يمينه».

واختلج صوته وسالت الدموع من عينيه وهو يتكلم، ثم قال كعادته: كفاية كده وتعالى بعدين.

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٣

كان قُدَّاس فجر الأحد في كنيسة الدير جديدًا، فقد استنار عقلي بما سمعت وأحسست بأنني بدأت أستوعب الصلاة بشكلٍ جديد، لاسيما آخر ما ذكره الأب فليمون عن القصر الملكي، وعن إعلانٍ مجد الإنسان في المسيح.

ولم أتعجَّل العودة إلى القاهرة. كنتُ أودُّ أن أسمع ما يمكن أن يقال عن الثالوث. وكان من الصعب الحصول على موعد مع الأب فليمون. ومن العبارات المأثورة: «الراهب زَي الريح لا تعرف أين يذهب ومن أين يأتي». وقلت له مداعبًا إن هذه عبارة الرب نفسه عن المولود من الروح القدس، وعن الروح القدس نفسه، فقال: «الراهب الحقيقي هو لابس الروح»، وابتسم وأضاف: «ربنا يدينا زَي ما إدَّى الآباء القديسين»، وصَمَت.

عندما ذهبتُ إلى القلاية، قال لي: «استنى أحسن كريمة هنا»، ونظرتُ فإذا بعقربٍ كبير جعل الرعب يتسلل إلى قلبي، وقال الأب فليمون: «يا كريمةٍ خوفتي الأخ، روحي ارتاحي في المحبسة»، وأسرعت العقرب إلى المحبسة. وجلستُ في رعبٍ أنظر في اتجاه المحبسة خوفًا من أن تظهر فجأة. وتشتَّت فكري ولم أستطع أن أسمع وأحفظ ما قيل. ولاحظ الأب فليمون ذلك، فقال في وداعةٍ: «شوف يا أخ الخوف عامل فيك إيه؟ أنت خايف من لسعة عقرب، والخوفٍ خلَّى جسمك كله في تحفز، تصوَّر لو إنك بتحب المسيح بنفس درجة خوفك من الأذى، كنت تمشي على المية زَي القديس بطرس».

الإنسان الذي يراقب حياة الثالوث، ينسي العقارب والآلام، الجسد والطعام والزمان والناس، لأن مجد الثالوث أعظم. الثالوث لا يُدرَس،

بل يُراقَب كما يراقِب إنسان مغرم بمراقبة الطيور كيف تطير وتمشي وتأكل.

كان درسًا قصيرًا وعظيمًا.

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٤

أصبحتُ أخاف من ظهور «كريمة»، العقرب المفضَّل الذي يعيش معه في القلاية وفي المحبسة، ولم أعد أشعر براحة في الجلوس في القلاية، حتى إنني بدأت أنظر تحت الحصيرة وفي كل اتجاه، حتى في السقف. وعلَّق الأب فليمون وقال: «مَن يخاف مِن العذاب الأبدي يرى الخطية من بعيد ويهرب. ومَن يحب الله الآب والابن والروح القدس يرى محبة الله، فيهرب مِن البُغضة، لأن البُغضة هي التي تغلق عقل الإنسان عن إدراك محبة الله».

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٥

قال الأب فليمون إن التوحيد الحقيقي يجب أن يؤدي إلى وحدة، وحدة الإنسان نفسه، أي الجسد والروح، ووحدة السماء والأرض، ووحدة الجنس البشري، ووحدة كل هؤلاء باللّه نفسه الذي هو مثال الوحدة الحقيقية، والذي منه تنبع هذه الوحدة.

عندما يتكلم، كان كَمَن يقرأ شيئًا أمامه، لأن فكره كان منتظمًا متسلسلاً. وهكذا قال: «إن وحدة الجسد والروح مهددة دائمًا بالخطية، وبالموت عثرة الخطية. ووحدة السماء والأرض غير ممكنة، لأن لكلٍّ منهما نظام وطبائع مختلفة، وتحتاج إلى تدخُّل الخالق. أمَّا وحدة الجنس البشري، فهي مستحيلة على البشر، لأن الخطية جاءت بانقسام العقل والقلب، وانقسام المعرفة نفسها، والغواية الشيطانية أفسدت كلمة اللّه التي وُهِبَت مع الصورة الإلهية. وصراعات البشر مسألة لا تحتاج إلى دليل أو برهان. صراعات على الممتلكات والأرض، وقتال وحروب لن تنتهِ، وفي كل هذا يقول الناس «اللّه واحد»، وهذه حقيقة، لكن ما جدوى هذه الحقيقة إذا كانت لا تُشرق في حياة الإنسان نفسه، وتنقله إلى وحدة مع نفسه ومع غيره، وتحول النظام الكوني نفسه، أي السماء والأرض إلى وحدة تجمع الكل في ألفة واتحاد لا انقسامات ولا صراعات فيه؟»

قال: «إن بداية هذا كانت في كنيسة الدير، عندما كان يرتِّل لحن توزيع الأسرار بعد عيد الصعود الذي يقول: «جعل الاثنين واحدًا، أي السماء والأرض». وقال إنه صلَّى وطلب استنارةً من المسيح رب المجد، لأنه لم يكن يعرف، ولا سَمِعَ عن وحدة السماء والأرض. وأغلق على نفسه، أو حسب تعبيره: «حَبَسَ نفسه»، ودام الاعتكاف أيامًا لا يذكر بالضبط

عددها، وفي مساء يوم من أيام الاعتكاف، كان الكيروسين قد نفد، ولم يعد لديه أي مصدر للنور، ولم يشأ أن يخرج في ظلام الليل، وقرر أن يبقى بدون نور، لأن المسيح رب المجد هو نوره الحقيقي. وقال إنه جلس يصلي، فقد كان مُتعَبًا وسكب قلبه أمام الرب، فأشرق الربُّ على فكره بنور معرفة فائقة، لأنه تذكَّر في تلك اللحظة عبارة الرسول بولس في الإصحاح الأول من أفسس عن الرب الذي سوف يجمع كل شيء ما في السماء وما على الأرض تحت رأسه الواحد كربٍّ للخليقة كلها، وسأل الرب أن يعطيه فهمًا أكثر، فنال ما طلب.

كان قلبه وعقله في صفاء، ولذلك لم يكن يحتاج إلى الكتابة، وكانت ذاكرته قوية جدًا، لأنه كان يذكر الكثير من نصوص الكتاب المقدس وصلوات الكنيسة. وكانت البداية حسب تعبيره هو في كلمة واحدة كما جاءت في العهد الجديد. فقد جاء الرب يسوع لكي يجمع الكل إلى واحد، لأنه هو الراعي الصالح الواحد (يوحنا ١٠: ١١، ١٤)، وقال لمرثا إن الإنسان الذي تشتعل في قلبه نار المحبة الإلهية في حاجة إلى واحد (لوقا ١٠: ٤٢)، والكنيسة هي جسد المسيح الواحد الذي هو الرب الواحد، وصالَح الربُّ اليهودَ مع الأمم وجعل الاثنين واحدًا في جسده، فأبطل العداوة (أفسس ٢: ١٥)، والرجل والمرأة جسدٌ واحد.

هكذا أشرقت كلمة اللّه على قلبه، ولذلك دام الاعتكاف عدة أيام لا يذكر عددها، وبدأ فكره يرتِّب هذه الإشراقات الروحية في تسلسل.

وقال الأب فليمون: «إذا بدأنا بوحدة الجسد والروح، فإننا ننتهي بوحدة السماء والأرض. وإذا بدأنا بوحدة السماء والأرض انتهينا بوحدة الجنس البشري. عجيبٌ حقًّا هو تدبير اللّه، هو مثل الدائرة، يجب أن تكتمل، وجزء واحد من الدائرة لا يكفي.

ما هو المقصود بوحدة الجسد والروح؟ والجواب هو أن يصبح الجسد روحاني، وأن يكتسب الجسد صفات الروح نفسها، ويتحول بواسطة نعمة الرب وسُكنى الروح القدس إلى ذات صفات الروح الإنسانية، لكي

يكون له ذات صفات جسد الرب وروحه الإنسانية، وهي ذات صفات الرب نفسه، وذات صفات الروح القدس" .

وعندما لمح قلقًا ظاهرًا على وجهي، قال: «لا تخف من الأوطاخية، أنا لا أتحدث عن تحول طبيعة الإنسان، وإنما تحول صفاته. يجب أن ننال من الرب الصفات التي تؤهِّلنا لأن نحيا في الملكوت إلى الأبد، ومشكلة الفكر البشري هي في أنه يستطيع أن يرى هذه الحقيقة واضحة تمامًا في المسيح، ولكنه يعجز عن أن يراها في الحياة اليومية.

عندما نتكلم عن هذه الأمور، فأول سؤال يخطر على بالنا هو: «إزَّاي؟» وهذه الكلمة هي الإشارة الصحيحة التي تؤكد أن الإنسان ضُرِبَ ضربةً هائلةً في أهم ما يملك، وهي المعرفة، ولكن علينا أن نقول «إزَّاي»: لقد جاء الرب لكي يعطي لنا الملكوت السماوي ووعدنا بذلك أكثر من مرة، ولذلك نقرأ هذا في الإنجيل:«لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت» (لو ١٢: ٣٢)، فكيف ننال الملكوت ونبقى في نفس الحالة الترابية الفانية؟ ولذلك السبب يقول الرسول بولس عن رب المجد: «الذي سيغيِّر شكل جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده» (فيلبي ٣: ٢١).

وطبعًا الكلام هنا عن القيامة، ولكن القيامة تبدأ هنا في هذا الدهر، لأننا نرى كما يقول الرسول «في مرآة» (١ كور ١٣: ١٢، ٢ كور ٣: ١٨). ولكن في يوم مجد ربنا يسوع المسيح، رب المجد، سوف نرى كل الأشياء بوضوح، لأن الفساد سوف يُرفَع، والأجساد ستقوم، والنظام الكوني كله سوف يُشرِق بلمعان الحياة الإلهية.

عندما نقول إننا سننال ذات صفات ناسوت المسيح، وهي ذات صفات أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس، فإن العبارة تبدو مخيفة وكبيرة على تصوُّر قلب الإنسان. ولكن الحقيقة هي أننا سوف نرى في أنفسنا أولاً: عدم الفساد. وثانيًا: مجد الحياة التي لا تموت. وثالثًا: لا ألم ولا ضعفات. ورابعًا: قوة وثبات في الحياة الجديدة. هذه الصفات وَضَعَها الرسول بولس

في الإصحاح الخامس عشر من رسالته الأولى إلى كورنثوس عندما قارن بين الجسد الترابي وجسد القيامة. وكل صفات جسد القيامة هي صفات اللّه نفسه، لأننا سوف نقوم في ذات مجد المسيح، لكي ننال فيه ومنه كل صفات الحياة الجديدة. وهي ذات صفات الروح القدس الذي به نُمسَح على كل عضو من أعضاء الجسد، لكي ننال بهذه المسحة مجد الابن الوحيد.

كان شيوخ الدير يقولون لنا عندما كانت تكثر محاربات الشهوة الجنسية، إن هذه المحاربات سوف تقل كثيرًا عندما «يتروحن الجسد»، وعندما ينال «عقلانية الروح»، لأن الزنى كامن في قلب كل إنسان يظن أن جسده آلةٌ أو شيءٌ، وليس المظهر والرداء الذي تلبسه الروح، والذي بدونه لن يكون أيٌّ واحدٍ منّا إنسانًا. فالإنسان الخارجي يجب أن ينطبق تمامًا على الإنسان الداخلي، ولذلك يقول الرسول إن الإنسان الخارجي يفنى، لأنه يفنى بالتحول الذي يكمُل بالموت. لقد كنتُ مثلك، أسجد عند أجساد القديسين كعادة، وكنت عندما أسجد وأُقبِّل الأجساد، كنت أشم رائحة ذكية لم تكن فقط رائحة الحنوط، بل كانت رائحة خاصة. وكنت أُدرِك أنها رائحة عدم الفساد وعربون القيامة، ولذلك بدأ السجود عند هذه الأجساد يتحول إلى دموع وصراخ، وطلب من اللّه أن يحوِّلني إلى ذات المجد، وأن يكشف لي عن جهلي بهذه الأسرار. وفي ليلة قال لي الرب: «يا فليمون لازِم الصمت وأنت تفهم». وأدركتُ أنه عليَّ أن أكتفي بالصلاة وبالانقطاع عن الحديث مع الناس، والانشغال داخليًا، وأدركتُ أيضًا أنني بدون نعمة الرب وعمله فيَّ سوف أهلك هلاكًا أبديًّا، وسوف أكون مثل أهل سدوم وعمورة.

كانت الشهوات تقاتلني بعنفٍ شديد، وما أكثر الليالي التي كنتُ أنام فيها واقفًا لكي أحرم جسديَ من النوم، ولكن ذلك لم يقلع الشهوة من قلبي، بل جعل جسدي ضعيفًا جدًا. وفي ذات يوم لم أعُد أقوى فيه على الوقوف، أو حتى السير لأنني لم أكن أتناول حتى الخبز، واكتفيت بالمياه، وقلت للرب أعطني معونة وعزاء في شخصك حتى إذا أردت يا

رب، أن أنتقل من هذه الحياة، أن أموت على الإيمان وفي توبة. ومِن كثرة التعب نمتُ نومًا عميقًا، وفي نومي رأيت حلمًا عجيبًا، فقد رأيتُ نفسي عريانًا تمامًا مع الحيوانات الضارة مثل الأُسود والنمور والذئاب، وهي تسير بجانبي دون أن تمسَّني، بل جاء أسدٌ كبير وقبَّل قدمي وأنا في دهشة، ثم حدث شيء عجيب، إذ وجدتُ نفسي أقف أمام جسدي وجسدي يتحرك بدوني، وسمعتُ صوتًا يقول لي: «إذا أردت أن تكون كاملاً، فكن واحدًا مع جسدك، وأنت تنال مجد آدم الأول ونعمة آدم الأخير». واستيقظت من النوم على جرس الدير، فأدركتُ أن مسيرتي تبدأ بوحدة كياني، وأنني يجب أن أكون واحدًا مع جسدي، وأن أضع نهايةً لهذه الثنائية، ولم أسأل «إزَّاي»، **لأنني عندما كنتُ عريانًا، كنتُ في سلام، لم يكن عقلي يلتمس شيئًا في جسدي، ولم يكن جسدي شيئًا غريبًا عني كما لو كان له وجود آخر.**

وهكذا عُدتُ إلى الحياة النسكية بإفراز، وأدركتُ أن الانقطاع عن الطعام يجعل الجسد ضعيفًا، ولكنه لا يعطي الإفراز المطلوب. وكشف لي الرب عن جمال نعمته، فقد أدركتُ أن تجسُّد الرب كان هو المثال الواضح لوحدة الجسد مع الروح، ولوحدة الإنسان أي البشر مع الرب نفسه. لقد تجسَّد ابن الله لكي يوحِّدنا به، ويوحِّدنا مع أنفسنا، ويوحِّدنا كلاً مع الآخر كقول الإنجيل: «لكي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد» (يوحنا ١١ : ٥٢). ولكي يجمع الكل، رُفِعَ على الصليب، لأنه قال: «وأنا متى ارتفعتُ أجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢ : ٣٢).

وهكذا بدأتُ أُدرك سِر رشم الصليب بوفرة في الصلوات وفي القداسات، لأن الصليب هو علامة المصالحة السمائية، وهو القوة التي تجذب الجميع إلى واحد، أي الله في يسوع المسيح. وطلبتُ من الله أن يكشف لي عن سِر الصليب. وقد دُهشتُ لأنني عندما كنتُ طفلاً صغيرًا قالوا لنا في الكنيسة إن نقل اليد من الشمال إلى اليمين عندما نقول: «والروح القدس» أثناء رشم الصليب، تعني الانتقال بالروح القدس من الدينونة إلى الحياة، أي من الحياة الآدمية الميتة إلى الحياة حسب مجد

ابن الله بالروح القدس. هكذا تحوَّل رشم الصليب إلى استنارة، لكي أطلب روحانية الجسد لكي لا يموت الجسد موت الخطية، بل يموت موت المسيح».

ولم أستطع أن أسكت، فقد كان التمييز بين موت الخطية وموت المسيح جديدًا عليَّ. ولذلك سألته عن الفرق، فقال في وداعة:

«الفرق بين موت المسيح وموت الخطية هو أن الأول موتٌ عن الخطية، أي تحوُّل قوة موت الرب إلى إبادة لقوة الخطية فينا. هكذا حوَّل الربُّ الموتَ من انفصال الجسد عن الروح، إلى انفصال الإنسان نفسه عن الخطية. هل تجد هذا الكلام صعبًا؟» فقلت له: نعم. فقال: «النار تُستخدَم لأكثر من غرض؛ فهي تدمِّر، وهي تنقِّي، وهي سبب حياة للإنسان. قبل الصليب كان الموتُ يدمِّر ويفني وحدة الإنسان، لأن الإنسان كان عاجزًا تمامًا عن أن يواجه الموت. بعد الصليب وبعد أن أباد الرب شوكة الموت، جَعَلَ الموتَ قوةً تنقي الإنسان من شهواته، وقوةً تضرب وتقلع جذور الخطية. هتقول «إزَّاي؟» جاء الصليب بالجديد على الإنسان؛ وهو كراهية الخطية، وكراهية الخطية لا تُولَد في الإنسان بالحسرة والندم، وإنما تُولَد بقوة الصليب، لأن شركتنا مع الرب تجعلنا -بالبقاء في الشركة- نرفض ما يفصلنا عنه، أي الخطية. ولذلك، كلما زادت فينا محبة الرب، كلما اكتشفنا أن الصليب هو رغبة وإرادة في الرب لأن يدخل إلى أعماق نجاسة قلوبنا ويغسلنا. فالصليب هو ذلك السر العجيب، أن يقبل الرب أن يحمل خطايانا، وأن يُبيد هذه الخطايا بالاستنارة بالاتحاد به في المعمودية، وبعمل الروح القدس في الميرون، وبالتناول من جسده ودمه الإلهي. نحن لا نكره الخطية لأننا نريد ذلك، بل لأن الروح القدس يعطي لنا هذه الكراهية. وجاء الصليب بموت الرب المحيي، فصار موت الرب حياة، وقبل أن تقول «إزَّاي؟» هقولك مات الرب على الصليب لكي يُحيي الإنسانية فيه. جاز حكم الموت عليه وهو معلق على الصليب، لكي يرفع الموت كحكم، ويدوس الموت ويجعله تحت سلطانه، ويحوله من ثمرة للخطية إلى قوة تبيد الخطية. كان الإنسان يخاف الموت، ولكن بالصليب لنا قيامة، ولذلك

تحول خوف الموت إلى خوفٍ من الخطية.

وعندما صُلِبَ الرب، جعل جسده ذبيحةً، ونحن عندما نصبح ذبائح للرب، لا لكي نفني أجسادنا، بل لكي نرفع هذا الجسد الترابي الحقير إلى تقدمة للرب، وأن نُنقذ الجسد من تفاهة وحقارة التراب، إلى مجد الذبائح، أي ذبائح الحمد والشكر.

العبادة العقلية التي تحدَّث عنها الرسول، والتي بها وفيها يتحول الجسد إلى ذبيحة روحية مجيدة، يقبلها الآب في ابنه يسوع المسيح بتقديس الروح القدس. هكذا وحَّدنا الرب بتجسُّده وموته وقيامته، ورَدَّ لنا الكيان الواحد غير المنقسم الذي نأخذه عطيةً لا تفنى ولا تموت، بل تظل فينا رغم ما يحدث لنا، ورغم السقوط في الخطية، لأن نعمة المسيح لا تغلبها الخطية، ولذلك قال الإنجيلي: «المولود من الله لا يخطئ» (١ يوحنا ٥: ١٨)، والمولود من الله هو يسوع المسيح، ونحن فيه نُولَد ليكون كلٌّ واحدٍ منّا أخًا للابن البِكر (رو ٨: ٢٩)، وتظل فينا نعمة طبيعة المسيح التي نأخذها في المعمودية إلى أن تظهر يوم القيامة».

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٦

وقال الأب فليمون: «إن وحدة السماء والأرض تظهر كبذرة شجرة كبيرة في الليتورجية، لأننا بسبب تقديم الرب ذاته على الصليب، وتقديم ذاته لنا في الإفخارستيا وقيامته وصعوده، نرى وحدة السماء والأرض في اجتماعنا مع الرب ومع القوات السمائية. عندما نقول مع الشاروبيم والسارافيم: «قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت..»، فإننا نشترك مع السمائيين، لأننا صرنا واحدًا معهم. وتؤكد ذلك صلاة الساعة الثالثة: «عندما نقف في هيكلك المقدس نُحسَب مثل القيام في السماء»، ونضيف مؤكِّدين: أن باب السماء فُتِحَ بتجسد الابن من والدة الإله الذي فَتَحَ لنا باب الرحمة.

نحن نرى ذلك في صلواتنا، عندما نصلي قداس المعمودية، ونقدِّس المياه، فإننا نعلن الطبيعة السمائية للكون الجديد، لأن المياه لا تلد إلاَّ ما هو أرضي، ولكن بحلول الروح القدس يُولَد الجسد ميلادًا روحيًّا من مياه التقديس. وعندما نُولَد وننال الحياة الجديدة، نُدرِك أن النظام الكوني الجديد يظهر في داخل النظام الكوني المعاصر إلى أن يُعلَن جديدًا في يوم القيامة. هذا الموضوع صعب الكلام فيه، لأننا لازلنا نحيا في نظام الكون الذي عاش سقوط آدم وخضع «للبُطل» (رو ٨: ٢٠)، إلى أن يأتي النظام الجديد».

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٧

سألتُ الأب فليمون: ولكن ما هي علاقة عقيدة الثالوث بوحدة الروح والجسد، ووحدة الجنس البشري، ووحدة السماء والأرض؟

قال الأب فليمون: «اللّه واحد في ثالوث، أي وحدانية في ثالوثية، وكلتا الصفتين لا يمكن فصلهما بالمرة. مشكلة كل الهراطقة هي انعدام الإفراز عندهم، وتبدأ مشاكلهم مع التجسُّد، ثم تتصاعد بهم نحو الثالوث. يتعذَّر على الهراطقة الإيمان بالوحدة، لأن الوحدة تضرب جذر الخطية. الفلاح الشاطر يقلع الشوك من جذره لكي لا ينمو مرةً ثانية. ولذلك، جذر الخطية يحيا في الانفصال عن اللّه، والخطية تحرِّك الإنسان لكراهية الشركة، والخوف منها واعتبارها مشكلة.

يظن بعض الرهبان أنني مجنون، وأنا أفرح بهذا الظن، لأنه يساعدني على الاعتكاف، ونادرًا ما يتكلم أحدٌ معي، فأنا لا أفهم شيئًا، ويقولون عني إنني ساذج وعبيط، وهذا يلائمني، بل صدقني، أفرح به، لأنني أجد في العزلة والاعتكاف كل الفرص التي أحتاج إليها للصلاة. التجسُّد هو اتحاد اللاهوت بالناسوت، والعقل الذي لم يحصل على استنارة الروح القدس لا يقبل التجسُّد، بل يجد فيه عثرةً. أحيانًا أسمع بعض المسيحيين يسألون: هل كان المسيح يستحم ويشرب وينام، إلى آخر الأفعال الإنسانية؟ وكنت أسأل هؤلاء أحيانًا هل أنت متضايق من حياتك كإنسان؟ هؤلاء لا يحبُّون الجسد، ولذلك تجد أسئلتهم عن التجسُّد وعن التناول لا تنتهي، ومصدر كل هذه الأسئلة هو كراهية الجسد والخوف من الاتحاد والشركة.

صدقني يا أخ، العقل الذي تدرَّب على الحياة المسيحية، والحياة حسب وصايا الإنجيل يسجدُ في رعدةٍ شاكرًا الرب الذي تجسَّد لأجلنا. أمَّا

العقل المتشامخ، فالحديث عن التجسُّد يضره ويعثره، وكذلك الحديث عن الصليب أصعب. لو أدرك أي إنسان أن غاية الإيمان بالله هي الاتحاد به، لأدركَ فورًا أن التجسُّد هو الدرس الأول عن هذا الاتحاد، وأن هذا الدرس يقود إلى أعظم ما يمكن أن يقال عن الله، وهو أنه واحد في ثالوث.

جاء أحد الإخوة وكان يفكِّر في ترك دين المسيح، وكان لازال فيه بصيص من النور. وتحدَّث مع الآباء في الدير، وظل يصلي بصوت عال أمام أجساد القديسين، ولذلك سمعته وهو يبكي ويقول: «الإيمان بك يا رب صعب، ثلاثة في واحد، لو كنت واحد بس، كان الإيمان بك يكون أسهل. وأعطاني الرب يسوع ثقة لأن أتحدث معه. وقلت له: لماذا تظن أن الإيمان بإلهٍ واحد أسهل؟ عمومًا نحن نؤمن بإلهٍ واحد، ولم نؤمن بالمرة بثلاثة آلهةٍ. وجلسنا في القلاية، وتحدَّثنا حديثًا طويلاً لا أذكره كله .. ولكنني أقنعته بأن **الله واحد، هي عبارة سهلة يهضمها الإنسان في سرعة، وبعد ذلك يجوع، والجوع الحقيقي هو في أن هذه العبارة لا تكشف شيئًا عن طبيعة الله، ولا عن حياته، إنها وصف خارجي لله**. إنها مثل وصف سور الدير، نقول عنه إنه سور واحد، لأنه لا يوجد سور آخر غيره، ولكن ماذا يوجد خلف هذا السور من كنائس وقلالي ومزارات وتاريخ، كل هذا لا يمكن الحديث عنه، إلاَّ بدخول الدير نفسه، أي الدخول من السور ومن البوابة الرئيسية. ولذلك، **التوحيد هو بوابة الإيمان الرئيسية، ولكن يجب أن يدخل الإنسان من هذه البوابة لكي يحيا**. وهذا ما يجعلنا نقول إن الله واحد، وبداية قانون الإيمان النيقاوي: «بالحقيقة نؤمن بإلهٍ واحد». وعندما نستخدم كلمة واحد لأي إنسان، فإننا لا نكتفي بكلمة واحد، بل نضيف إليها ما يُقال من صفات أخرى».

وسَكَتَ الأب فليمون، وهو يرى شيئًا ما أمامه، كما لو كان يقرأ من كتاب. وقال بعد أن استراح من الكلام: «**الثالوث دعوة إلى التشبُّه بوحدانية الله. هو يمُدُّ إلينا نعمة الاتحاد عندما يعلِن عن ذاته كثلاثة في واحد. ثم يمنح لنا النعمة الكافية التي تقودنا إلى الاتحاد. هذه النعمة هي مجيء ربنا يسوع المسيح ابن الآب، الذي فيه نرى علاقته**

بالآب وعلاقته بالروح القدس. فهو مولود من الآب قبل كل الدهور، ولذلك هو مساوي للآب في الجوهر. ضايقت هذه المساواة أريوس، وظنَّ أنها كثيرة جدًا على الله. ولكن ما كان كثيرٌ على أريوس هو قبوله الخلاص بمخلِّص مساوي للآب، لأن هذا يمجِّد الإنسان ويرفع من شأنه ويعطيه كرامةً أكبر. ولكن المرض الروحي الحقيقي هو إخضاع الله لمقاييس العقل البشري. ولذلك، طلب منّا الرب يسوع أن نجحد ذواتنا، أي أن نرمي كل اعتبارات ونظريات الفكر لكي نكون له تلاميذًا. وقال في صرامة واضحة إن مَن لا ينكر نفسه ويحمل صليبه لا يستحق أن يكون لي تلميذًا. ولكن كيف نصبح تلاميذًا للرب ونحن قضاة، ولدينا أحكامٌ جاهزة ضد تواضعه ومحبته؟ أرجوك يا أخ أن تفهم؛ تأمُّل الله صعبٌ على العقل البشري، لأن العقل مملوء بالأفكار والأحكام، ولا يقبل ما يقدِّمه الله، ولذلك قال الرسول إن الإنسان الطبيعي عنده جهالة، هي جهالة الطبيعة الإنسانية التي لا تقبل ما لروح الله، لذلك نحن نحتاج إلى الاستنارة لكي يكون فينا نور الروح القدس».

واعتدل الأب فليمون في جلسته وقال لي: «هل تعرف كيف تميِّز نور الروح القدس في قلبك؟» فقلت له: لا أعرف، فقال: «عجيب. فكيف أنت ثابت في الإيمان، ولماذا يتحرك قلبك للصلاة، ولماذا تشتاق لأن تعرف وتسمع عن الله؟ إذا وجدت في قلبك حرارة تدعوك للالتصاق بالرب يسوع، فلا تظن أنها منك، لأنها من عمل الروح. وإذا وجدت أنك تسعى لفهم الإيمان، وتحب الرب وتجاهد ضد الخطية، فهذه كلها ليست منك، ولكن مِن نعمة الله، أي سُكنى الروح القدس. وإذا وجدت أنك مستعد لأن تُسامح وتغفر الإساءة ومستعد لأن تموت ولا تنكر الإيمان، فهذا ليس منك. عجيبٌ أن لا تُدرِك أن هذه هي حركة الحياة الحقيقية فيك. أنت تعرف المسيح ربًّا وفاديًا فلا تظن أنك تعرفه لأنك قرأت عنه، أو لأنك درست اللاهوت في الإكليريكية، بل لأن الرب وضع في عقلك وفي فكرك الاستنارة. وهكذا عندما تجد نفسك تواجه مشاكل خاصة بالإيمان، ومع ذلك تثبُت، فالسر في ثباتك هو نعمة الله، أي سُكنى

الروح القدس الذي ينير قلبك ويعزّيك ويقول لك إن المشاكل مهما كانت سوف تُحَل، وأن المشاكل لا تساوي الملكوت».

كان التعب قد أدركه، وكنت أنا في حاجة إلى الراحة، ولذلك استأذنته في الذهاب .. وقال وهو يودعني: «تعالى بكرة بعد القداس».

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٨

كنت مشتاقًا للحديث، لاسيما الكلام السهل الواضح عن عمل الروح القدس في قلب الإنسان. ولكن ظلَّ موضوع الثالوث هو شغلي الشاغل. فقد أردتُ أن أتذوق حلاوة وعذوبة اختبار هذا الإنسان العجيب الذي لا يدل مظهره على أنه يختبر هذه الأسرار الفائقة. وكانت سهولة شرح الإيمان هي أكثر ما جعلني أتابع الحديث معه.

قال الأب فليمون: «**الثالوث هو دعوةٌ للاتحاد بالله، ولذلك السبب أُعلِن لنا أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس. جاء الابن لكي يقول لنا أنا سوف أرفعكم إلى ذات المقام، ولكي يكون لكم علاقة مع الآب، سوف أفتح لكم الباب، وسوف أكون أنا الباب. سوف أفتح لكم ينبوع الحياة الروحية التي فيَّ، وسوف أجعل لكم ميراثًا سماويًّا لا يفنى.** الإنسان يُحب الأمور الباقية. مَن منّا لا يحب أن يكون لديه شيء لا يفسد ولا يموت ولا يضمحل؟ هكذا وَصَفَ الرب الملكوت في العظة على الجبل عندما قال إن كل المقتنيات يأكلها السوس والصدأ. هل تُحب ما يبقى إلى الأبد؟ إذا كان جوابك نعم، فأنت تُدركُ أن الاتحاد هو دوام وبقاء، وأن الانفصال هو موت.

كانت بشارة الرب بالملكوت هي بشارة بما سيبقى ويدوم بالميراث الذي لا يمكن للموت والفناء أن يؤثر فيه. وكانت البشارة هي بملكوت الله، أي بأن نصبح نحن ملوكًا في مملكة الآب السماوي. وهكذا شجَّعنا رب المجد على ذلك، ودعانا لأن نطلب هذا الملكوت بكل اجتهاد ممكن. فإذا أردنا الملكوت وطلبناه من الرب يسوع، نجد أننا لن نكون فيه وحدنا، بل هو شركة كاملة بيننا وشركة كاملة في الله، لذلك دعانا الرب إلى عدة أمور صعبة على الإنسان: أن يسير الميل الثاني، وأن

يحوِّل الخد الآخر، بل أن يتخلى عن المقتنيات .. كل هذه الأمور الصعبة لها هدف واحد، وهو أن ندرك أننا لن نكون أفرادًا يحيا كلٌّ منّا في عزلة، بل سنكون معًا في شركة ليس فيها ظلام البغضة. ولذلك، الإنسان الذي يسامح عدوه هو في الملكوت، والثالوث القدوس لا يكون صعبًا عليه. كيف؟ الجواب هو أن غفران الإساءة هو عدم تمسُّك حتى بحقوقنا، وترك ما لنا يجعلنا ندرك جُود الله وصلاحه. هذا الجُّود صعبٌ تصوُّره على كل مَن يحيا في العداوة ومستعبَد لسلاسل البغضة. ولذلك، وضع الرب يسوع غفران الإساءة كطِلبة أساسية في الصلاة الربانية. **التعليم الذي سلَّمه لنا الرب يسوع في الصلاة الربَّانية هو المقدمة لاكتشاف حقيقة أن تحوُّل كيان الإنسان يعني تحوُّلاً في المعرفة، كما أن تغيير المعرفة يؤدِّي إلى تحوُّل الكيان الإنساني.** غيَّرت الخطية كيان الإنسان وجلبت عليه الموت، ولذلك جاء الرب يسوع بعلاجٍ شافٍ، إذ جعل الكمال ليس بقدر ما يصل إليه الإنسان، بل جعل الكمالَ في المحبة: «أحبوا أعدائكم. باركوا لاعنيكم .. كي تكونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل»، وبذلك خلع الرب شوكة الخطية من جذرها، **لأن آدم الأول سقط بكبرياء الفكر، فجاء الرب يسوع وأعلن أن الكمال ليس في المعرفة، بل في المحبة لأن المحبة لا تسمح بالعظمة، والكمال في المحبة هو كمال الله الذي يحب أعداءه ويغفر لكل الخطاة.** وعندما علَّم الرب يسوع بأن الكمال هو في المحبة، نزع من عقل الإنسان صور العظمة الكاذبة، لأنه أراد أن يدرك الإنسان أن العظمة الحقيقية هي في المحبة.

لا يكره الله أن يكون الإنسان عظيمًا، ولكن العظمة الحقيقية هي في اختبار العطاء والشركة، وهي عظمة المحبة التي كُلَّما أعطت، زادت لأنها عندما تعطي، تجمع.

عندما نتوب، تؤهِّلُنا التوبة لأن ندرك ملامح أو شكل الثالوث، وأقول شكل أو ملامح، أي الهيئة التي يظهر بها الله؛ التواضع والانسحاق أمام الإنسان، لأنه جاء لكي يتجسَّد. وعندما تأنَّس، لم يقبل صورة العظمة، بل صورة الفقر الاختياري. وفقر المسيح يُشعل في قلبي نارًا حامية تجعلني

أرفض ما أُحب، وأكتفي بالقليل. أريد أن أتجرَّد من كل شيء مثل الرب الذي أحبني وانسحق أمامي. ماذا يمكن أن يفعل الآب أكثر من ذلك؟ أرسل ابنه لكي يتجسَّد في صورة العبد معلِنًا انسحاق الرب أمامنا، ثم سكب روحه القدوس علينا لكي نحيا به.

منذ سنوات سمعت هذه الطلبة في الكنيسة: «اسمك القدوس هو الذي نقوله، فلتحيا نفوسنا بروحك القدوس، ولا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية ولا على كل شعبك». وسألتُ الرب أن يكشف لي عن معنى هذه الكلمات، كيف نحيا بالروح القدس في النفس؟ لم أكن أُريد أن أحيا الحياة الغريبة عن الروح القدس، حتى لو كانت حياةً صالحة. ومرَّت أيام، وسمعت الرب يسوع المسيح رب المجد يقول لي: «يا فليمون إلبس الصليب في عقلك، وخلِّي الصليب شريعة حياتك. أنت تبدأ وأنا أكمِّل، وكل ما تحس بالضعف اطلب قوتي». وفهمت أن التجرد من الذات، الذات القديمة التي تحيا للعالم هو طريقي. وأصبحت لا أخرج بالمرة، ولم أعُد أُحب لقاء أحد. ومرَّت سنوات وأنا لا أكُفُّ عن هذه الصلاة، وفي أحد الليالي سمعتُ صوتًا ينادي، وكنت نائمًا، فقمتُ من النوم وقال لي هذا الصوت: انظر الحياة حسب الروح القدس. وحالاً وقفت في القلاية، فرأيتُ أرواح الأبرار وهم يتنفسون الروح القدس، ويلبسون الروح القدس وهم في فرح وسعادة، وقد تحوَّلوا إلى ألسنة نارية تَسبَح في نار المحبة الإلهية. وبكى الأب فليمون، وقال لي: «أمانة عليك يا أخ إن الكلام ده ما يتقالش إلاَّ بعد خروجي من الجسد». هكذا قال، وهكذا وعدته.

وتمرُّ سنوات على نياحة الأب فليمون. والآن، وقد نساه أغلب الذين يعرفونه، صار من الضروري أن أكتب من أجل الكنيسة ومن أجل مجد المسيح.

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

الثالوث -٩

عُدنا بعد يوم إلى الحديث عن الثالوث. بعد أن بكى الأب فليمون انصرفت، لم يكُن لديَّ رغبةٌ في أن أسمع أكثر مما سمعت. الثالوث رؤية، والرؤية لا يتعلَّم منها الإنسان، سوى أن يطلبها لنفسه.

قال الأب فليمون: «عندما أتذكَّر الثالوث، أتذكر تدبير الخلاص. لا خلاص بدون الثالوث. **لقد جاء الابن إلينا لكي يعطي لنا شركة في ذات العلاقة الأقنومية التي يتمتع بها هو كطبيعة خاصة به، لأنه الابن الوحيد. ولكنه يسمح بأن ندخل في هذه العلاقة الأقنومية، لكي ننال التبني ونصبح بالمحبة وبالحق أبناء الاب.** هكذا رَفَعَ اللّٰه من مقام الإنسان ونقله إلى مقام أعظم، وهو رتبة التبني. هذه الرتبة هي التي توحِّدنا، لأننا جميعًا نعوِّد إلى أصلٍ واحد، وهو الآب. **وننال ختم التبني، أي شكل الابن الوحيد.** في صلاةٍ قسمة عيد القيامة، نقول عن قيامة الرب: «لكي نضيء بشكلك المحيي». هذا هو ختم التبني. **لا يوجد فينا حياة أو صلاح حسب طبيعتنا، بل يوجد فينا صلاح ونور حياة الرب يسوع المسيح.** وعندما يوزِّع الرب نعمة التبني علينا وبالتساوي، لا يبقى فينا أي مكان لطبيعة آدم الأول التي تفتخر وتتعظم. هكذا نحن واحد بسبب النعمة الإلهية، وبسبب الشكل الواحد الذي سوف نشترك فيه».

جوهر الإيمان الأرثوذكسي:

١٠- الثالوث

قال الأب فليمون إن الثالوث ظهور إلهي، واستخدم الكلمة القبطية اليونانية «ثيؤفانيا». وسألني عن كتابات الآباء، فذكرت له كتاب القديس كيرلس الكبير عن الثالوث، ولم يكن معروفًا في الكنيسة القبطية، ولم يطَّلع عليه أحد لأنه لم يُنشر، إذ لازال مخطوطًا في المتحف البريطاني. وصمتَ الأب فليمون، ثم عدنا إلى الكلام عن الثالوث.

قال: «إن بداية القداس الإلهي هي ثيؤفانيا، لأننا نقول: مجدًا وإكرامًا للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس. سلامًا وبنيانًا لكنيسة الله الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية. حرَّكت هذه الكلمات قلبي منذ عدة سنوات، فأدركتُ أن الثالوث يظهر سريًّا في القداسات وفي صلوات الكنيسة.

كان لديَّ شعور بأن الرب يسوع سوف يكشف لي عن محبته التي هي محبة الآب والروح القدس، فليس في الوجود كله، في السماء والأرض، جُودٌ وعطاء أكثر من أن يعطي شخصٌ حياته كلها، حتى جسده ودمه الأقدسين.

ماذا يعلِّمنا عطاء الجسد والدم؟

نحن نصير «جسدًا واحدًا وروحًا واحدًا»، **لأننا بالاتحاد بالرب في سر التناول، يجد كلٌّ منّا مكانه في جسد الرب كعضوٍ** حسب التعليم الرسولي في الإصحاح الثاني عشر من رسالته الأولى إلى كورنثوس. نحن أعضاء في جسد واحد (١كور ١٢: ١٢). هكذا قال الرسول إن الجسد هو العلامة المميِّزة «لسر المسيح» لأننا نحن في الجسد الواحد يجد كلٌّ

منّا مكانه المميز».

قلتُ للأب فليمون: هل تقصد أننا نصبح مثل أقانيم الثالوث، عندما نتَّحد معًا في جسد الرب الواحد الكنيسة؟

فقال: «نعم».

ثم قال: «وهكذا يعلَن الثالوث بهذا الشكل من أجل خلاص الإنسانية من الانقسام، فقد جاء الرب لكي يؤكِّد تمايُز كل عضو عن الآخر، ودعا جماعة الرسل وعندما غيَّر اسم بطرس إلى «صفا»، وابني زبدي إلى «بوانرجس»، كان يريد من هذا الطقس البسيط أن يعلِّمنا أن الإنسان متمايز كلاً عن الآخر، وأنه صورة للوجود الحقيقي. أمَّا صورة الوجود المزيَّف، فهي ظاهرة، إذ يُصبح التمايُز سبب الانقسام، لأن الوجود المزيَّف هو الوجود الإنساني الطبيعي بلا نعمة، ليس لغياب النعمة، بل لرفض الإنسان لهذه النعمة. حتى في الدير، نجاهد لكي نحفظ هذا الوجود الخاص بكل واحدٍ منّا تحت نعمة اللّٰه».

وسكتَ، بينما كان قلبي يلتهب، فقد أدركتُ ما كنتُ أُفتِّش عنه، وهو أن التمايُز هو بداية إدراك وجودنا الإنساني المتمايز الخاص بنا، وأن هذه هي النقطة الفاصلة بين الخطية وحياة القداسة، لأن التمايُز يصبح سبب التناحر والانقسامات في عالم الإنسان الطبيعي.

كنتُ دائم البحث عن أفضل تعبير عن الأقنوم، لأن عقيدة الثالوث لها مكانة خاصة في حياتي، فقد ضُرِبتُ مرةً بوحشيةٍ ترَكَت علاماتٍ على جسدي بسبب إيماني بالثالوث عندما كنتُ طالبًا في المدرسة الثانوية. ومع أنني بحثتُ وقرأتُ ما يمكن العثور عليه من كتب نشرتها الكنائس المسيحية، فقد أخذ الجانب الدفاعي المساحة الأكبر، وانشغلنا بالحديث عن التاريخ والمصطلحات، وتركنا الجانب الروحي. ولكن الآن يرتِّب الرب يسوع هذه الفرصة لكي أسمع عن الجانب الروحي من إنسانٍ لم

يدرس اللاهوت، وكل ما يملك هو الكتاب المقدس، وصلوات الكنيسة الأرثوذكسية، وحياته التي يقضي معظم أيامها في اعتكاف. لا يعرف عنه أحدٌ شيئًا، بل يظن كلُّ المحيطين به أنه مجرد راهب ساذج لا يعرف شيئًا، وانصرف الناس عنه، حتى رهبان الدير، فأخذ هذه الفرصة لكي ينمو داخليًّا، وكانت له عبارة مأثورة: «الوقت نعمة من المسيح والعمر قصير».

قال الأب فليمون: «إن تمايز الإنسان عن أخيه الإنسان ضروري لنمو المحبة، ولكن الخطية تحرِّكنا نحو الآخرين لإشباع احتياجات الخطية، ولذلك علينا أن نميِّز بين الوجود الحقيقي حيث تحرِّك فيه المحبةُ كلَّ شيء وتحوِّله إلى المسيح لأن المحبة الحقيقية هي من المسيح، وبين الوجود المزيَّف الذي يشبه العُملة «الفالصو».

وهنا أخرج من جيبه قطعة نقدية من فئة العشرة قروش عليها صورة الملك فاروق، وقطعة أصغر قرشين عليها صورة الملك فاروق، وقال: «كلتا القطعتين «فالصو»، ومع ذلك لهما شكل العُملة الحقيقية». وقال: «الوجود المزيَّف هو مثل هذه القطعة لها رنين خاص يختلف عن رنين العملة الحقيقية». وقال: «إن الوجود الحقيقي نراه في ممارسة المحبة. كيف نمارس المحبة؟ لذلك قال الرب لنا إنه في يوم الدينونة سوف يسألنا عن زيارة المرضى والسجناء والفقراء، وهي كلها أعمال المحبة. هذه الأعمال تكشف عن الوجود الحقيقي حيث تسود المحبة على كل تصرفات الإنسان». وقلت له إن أحد كبار المتصوفين قال «إن الفرد يظل فردًا ومتى أحب تأقنم»، ونظر إليَّ وابتسم وقال: «لقد أدرك بداية الوجود الحقيقي للإنسان، وهو أن **المحبة تنقل الإنسان من الوجود المزيَّف إلى الوجود الحقيقي**، حيث يصبح كل إنسان حيًّا في شركة المحبة. هذه الشركة معلَنة في سر التناول، حيث ينال كلٌّ منّا جسد الرب كاملاً، ولكن في جوهرة صغيرة هي ميراثه السماوي، لكي يدرك المتناول أن

الجوهرة الصغيرة التي أخذها ليست جزءً من الكل، بل الكلُّ نفسه، لأن **توزيع جسد الرب ليس تقسيمًا للمسيح، بل شركة**. ولا يوجد طقسٌ آخر يمكن أن يعبِّر عن هذه الحقيقة، ولذلك نخطئ عندما نتكلم عن جزء من جسد الرب، بل جسد الرب لأنه قال لكل الرسل: «خذوا كلوا هذا هو جسدي»، ولم يقل: «هذا جزءٌ من جسدي». والمشكلة ليست في اللغة، وإنما هي قلب الإنسان الذي لا يُدرك أن التوزيع شركة، بينما في الخطية، التوزيع تقسيم وفصل، لكن في المحبة، التوزيع شركة، والشركة تجمع ما نشترك فيه بمحبة تجعلنا واحدًا، بينما في الخطية، ما نشترك فيه -بسبب الأنانية- يحوِّل كلاً منا إلى جهة الانقسام، ويزيد من الانفصال. ولذلك، تجد أننا عندما كنا نحضر التوزيع في العشاء أو الغذاء، كانت عادتنا أن نلف «المناب» بالخبز، حتى لا يغضب أحد على «منابه»، لأن توزيع الطعام يثير أحيانًا غضب الإخوة، فكلٌّ يريد أن يأخذ أكبر «مناب».

عندما نتناول جسد الرب ودمه، فنحن نصبح جسد الرب. لا يوجد فصل بين التناول والكنيسة، لأن الكنيسة لا يمكن أن تُدعى «جسد المسيح» إلاَّ إذا كانت تتحد بجسد المسيح، تمامًا مثلما يُدعى الرجل والمرأة «جسدٌ واحد»، حسب تعليم الرب نفسه «ولا يكون بعد اثنين بل واحد»، وما جمَّعه الله لا يفرِّقه أحدٌ من الناس. هكذا سر زواج الرب بالكنيسة. فقلت له: ولكن كيف نُصبح جسد الرب الواحد، ونحن نتناوله دائمًا، ألا تكفي مرة واحدة؟ فقال: «لا تكفي أبدًا، لأن التناول من جسد الرب ودمه هو انفصال عن الحياة الآدمية القديمة البالية، وطلب الحياة الجديدة. **نحن نحتاج إلى التناول طالما نحن في الجسد، لأن الاتحاد بالمسيح هو هبة، وهو مثل تدفق المياه، فالرب يسوع المسيح يسكب حياته فينا**. مَن يتزوج لا يكتفي بحياة يوم واحد مع زوجته، بل يلتصق بها دائمًا، وهذا هو أحد معاني «جسد واحد».

لنطلب الرب دائمًا في كل لحظة. **لقد حوَّل سر التناول كل فرد منّا إلى الوجود الحقيقي، الوجود كعضو في الجسد، له ذات حياة الجسد الواحد، لأن كل الأعضاء هي عضو، وكل عضو له ذات الحياة الواحدة.** هذه هي صورة الثالوث؛ حياة واحدة هي جوهر اللاهوت الواحد، يشترك فيها أقانيم الثالوث القدوس. هذا درس هام جدًا، لأننا حسب نعمة الرب، ننتقل من حياتنا الخاصة إلى الحياة المشتركة التي تميِّز الكنيسة».

سَكَنت كلمات الأب فليمون في قلبي، لأن بداية القُدَّاس: «مجدًا وإكرامًا للثالوث القدوس. سلامًا وبنيانًا للكنيسة اللّه»، هي بنيان الجسد الواحد في ذلك السر الفائق. وساد الصمت فترة، وكنت أخشى أن يقول: «كفاية النهاردة»، وسألت الرب أن نكمِل الحديث، لأنني كنت أريد العودة إلى القاهرة، ولم أكن أرغب في مغادرة الدير قبل أن أتأكد من أنني سمعت أغلب ما تعلَّمه هذا الإنسان في حياة الاعتكاف .. ولكنه قال عبارته المألوفة، ونظر إليَّ وقال: «لا بُد وأن تحضر إلى الدير في زيارة أطول لأنني أحس بأنك لن تكون معنا لفترة طويلة، سوف تغادر فيها مصر».

كنتُ قد بدأت إجراءات السفر إلى إنجلترا للدراسة، وكانت مشاكل السفر كثيرة .. وتطوَّع أولاد الحلال بإفساد علاقة المحبة مع قداسة البابا كيرلس السادس، ولكنني بذلت جهدًا شاركني فيه أستاذنا نيافة الأنبا اغريغوريوس - الدكتور الأرشيدياكون وهيب عطاللّه - وعادت علاقة المحبة، وقال الأب فليمون: «المحبة لا تموت، لأن المحبة التي تموت هي المحبة النابعة من الخطية».

حقيقي يا أبي المحبوب تعلِّمنا الخطية أن نحب، ولكن أي محبة .. المحبة التي تحفظ نار الشهوة، ولكن عندما تخبو نار الشهوة، تموت المحبة مع الخطية، لأن الخطية والموت كلاهما عنصر واحد.

الوجود الحقيقي

حسب نعمة الثالوث

(١)

كان العام الدراسي في الإكليريكية قد انتهى. وأسرعتُ بالعودة إلى الدير..

كان الأب فليمون مريضًا ولم يخبر أحدًا عن مرضه، وكان يبدو في حالةٍ من الإعياء والتعب. أخذتُ معي قدرًا من زيت الزيتون، وعَرِفتُ قبل مغادرتي للدير أنه ردَّه إلى الكنيسة لكي يُستعمل في إنارة قنديل الزيت في كنيسة أبا بسخيرون.

عُدنا -حسب طلبي- للكلام عن الوجود الحقيقي والوجود المزيَّف. وكانت بداية الحديث في كنيسة الشهداء الـ ٤٩.

كان يقول إن الوجود الحقيقي هو وجود الشهيد الذبيحة، ولذلك اكتفى بأن أشار إلى مكان دفن الشهداء الـ ٤٩ وقال: «هؤلاء عاشوا الشهادة الأولى، أي الرهبنة، ثم نالوا الشهادة الثانية، أي الاستشهاد. وفي الحقيقة، الثانية تسبق الأولى، لأن **بذل الجسد هو جواب كل نفس تتناول جسد الرب ودمه.**

نحن نشارك المسيح في بنوته لأنه شاركنا طبيعتنا لكي نشترك نحن في طبيعته. نحن نشارك الرب جسده وهو يشاركنا جسدنا، هو رأس الكنيسة ونحن الأعضاء. كلُّ ما فينا من صلاح هو منه.

حسب نعمة اللّه في يسوع المسيح، ننال الوجود الحقيقي في جرن المعمودية. نحن نُعمِّد الناس بلا تعليم، بلا استعداد، ولذلك نحن ندفن قوة هذا السر في بئر الجهل العميق، الجهل بالوجود الحقيقي.

نحن نوجَد لأننا ننال بدايةً جديدةً لحياةٍ جديدةٍ في المسيح. والوجود الحقيقي هو أن نحيا للرب وحده، فهو الذي يعطي لنا شركةً مع الآخرين، أي أعضاء جسده، الكنيسة.

عندما نحيا لأنفسنا، فرغم حصولنا على سِرِّ وقوة التبني في المسيح، نُصابُ بالضعف الروحي، وتتعطل فينا نعمة المعمودية، ولذلك السبب يُقيم الرب قديسين مثل الأنبا إبرام أسقف الفيوم وغيره من الذين يعيشون للرب ويهتمُّون بجسده لكي تظهر فيهم قوة الرب مُعلَنةً في نوع الحياة التي عاشوها كأعضاء في جسده، أي الكنيسة.

يبدأ الوجود الحقيقي في سر المعمودية، فهو الوجود الذي نُغرَس فيه كأعضاء في جسد الرب، هكذا شرح الرسول بولس هذه الحقيقة (١كور ١٢: ١٢ - ١٣).

ونحن نحيا كأعضاءٍ حيَّةٍ مغروسين في جسد الرب لكي نحيا معه وله وفيه: معه لأنه واحدٌ من ثلاثة أقانيم، كإلهٍ ورأسٍ واحدٍ لأعضاء كثيرين كإلهٍ متجسِّد، وآدم الأخير الأب والمصدر الحقيقي للحياة الجديدة، ولذلك قال الرب يسوع المسيح: «لا تدعوا لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحدٌ وهو المسيح»، فهو مصدر الحياة الحقيقية الجديدة.

كلما تأملت الضعف الذي نحيا فيه، أدركت أن مصدره هو تعطُّل قوة التبني فينا، لأننا بعد المعمودية، نعود إلى حياة الانفصال، حياة آدم الأول، ونترك الحياة الجديدة.

جاء الرب لكي يجمع الكلَّ في واحد، أي في أقنومه الإلهي المتجسِّد، وحتى الرب نفسه، هو واحدٌ من اثنين: لاهوت مساوي للآب، وناسوت مساوي لنا.

والثالوث هو واحدٌ في ثلاثة. والكنيسة جسدٌ واحدٌ له رأسٌ واحد، وأعضاء كثيرون. هذا هو الوجود الحقيقي الذي إذا فشلنا في فهمه أو رفضناه، عِشنا في الضعف الروحي الذي نراه الآن والذي هو حاصل في الكنيسة».

كان قلبي، بل كياني كله قد اشتعل بنارٍ خفيَّةٍ غير عادية تدعوني إلى التوبة. كان الأب فليمون يتكلم كما لو كان واحدًا من أنبياء العهد القديم. اختفت ملامح وجهه العادية وظهر تحتها إنسانٌ يشعُّ بنور الإنجيل، ورجلٌ أدرك قوة التعليم الأرثوذكسي بعد صراعٍ طويلٍ في الاعتكاف.

وصمت الأب فليمون برهةً، ثم عاد يتكلم في بطءٍ كأنه يُملي عليَّ كلماته الحية بقوة الروح القدس:

«عندما كنت أُصارع شهواتي كلها وبالذات الشهوة الجنسية، كنتُ أصرخ للرب يسوع: لا أُريد أن أُحب آخر غيرك، ولا أُريد أن أُحب جسدي بالصورة التي تجعله شيئًا غريبًا عنك. كنت أقول للرب: لقد تجسَّدت لكي تخلِّص الجسد والروح، وخلاص الروح سهل. ولكن بعد صراعٍ طويل، كشفَ ليَ الربُّ عن هذه الحقيقة التي غابت عني تمامًا، وهيَ أن أصل الخطية ومصدرها ليس الجسد، بل الروح. نحن نحاول أن نقلل من قيمة وجوهر الفكر، ولكن الفكر هو أحد علامات وجود الروح الإنسانية، لأن الفكر هو أصل الإرادة، وعندما يقتنع إنسانٌ بفكرةٍ ما ويصل هذا الاقتناع إلى إرادته، فإنه يتحرك نحو غايته، وتصبح هذه الغاية إرادةً يعود إليها دون أن يفكر.

لقد قال لي الرب يسوع في ليلة ما كنتُ أُصارع لكي لا أُحب نفسي بالشكل الذي يجعلني أرفض الرب، وأُحب جسدي، قال الرب لي: يا فليمون، إذا كان أصل الخطية في الروح، فأنت تحتاج لأن تعود إلى الجذر وتقلعه. أنا أُشاركُكَ كل ما في حياتك، لقد حملت خطاياك وخطايا العالم كله، صارت هذه الخطايا مسئوليتي، وهي مسئولية أحملها بفرح الآب والروح، وبفرح رد الخليقة إلى الآب. لا تخفَ من خطاياك لأنها لن تفصلك عني، ولكن خَفْ من عدم الإيمان، لأن عدم الإيمان يمنعك من التوبة.

فارتميت على الأرض، وسألت الرب يسوع أن يرحمني، ولم أكن أدركتُ عِظَم محبته. وهكذا عُدتُ إلى الصلاة بقلبٍ جديد. لقد فهمتُ

أن جسدي هو ملكٌ للرب، نعم هذا الجسد الترابي الذي سوف يأكله الدود. وأصبحت أزور «الطافوس»، أي مقبرة الدير لكي أُصلِّي من أجل قيامة جسدي في مجد المسيح، وهكذا عرفت أن الكنيسة ترتل في قانون الإيمان: «وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي» لكي ندرك أن الحياة الترابية المؤقَّتة هي بداية المجد الأبدي، وأن لا نترك هذا المجد الأبدي رغم ضعفات الحياة الترابية.

بدأ عزاءٌ عجيبٌ يدخل حياتي، عندما أدركتُ أن الربَّ يسوع يُحب جسده، نعم، ذلك الجسد الذي أخذه من والدة الإله، وأن هذا الجسد الترابي هو مسئولية الرب يسوع الذي يريد أن يحوِّله من تراب إلى مجد. ومع أنني كنت مشغولاً بالبحث عن منهج وأسلوب هذا التحوُّل، إلاَّ أن الرب يسوع انتهرني في الصلاة، وقال لي: «لا يوجد منهج، وإنما المنهج الوحيد المقبول هو أن يكون لنا شركة، وأن تظل أنت معي في هذه الشركة، لأن جسدي هو جسدك، وجسدك هو جسدي». لقد سقطتُ على الأرض في انسحاقٍ كاملٍ أمام الرب الذي أحبني بهذه الصورة الفائقة، لأن إله المجد الجالس على الشاروبيم يحب هذا المخلوق الترابي، ويعمل لكي يحوِّل هذا المخلوق الترابي إلى إنسان سمائي بنعمته.

سألتُ الرب أنني لا أفهم سر تحوُّل الجسد إلى مجده الإلهي لكي أقوم أنا بفكري بمتابعة أو محاولة تحوُّل الجسد. **وهدأ قلبي عندما كنتُ أُصلِّي وألتمس المعرفة، عندما أدركتُ أن الروح القدس الذي يحوِّل الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه، هو ذات الروح القدس الذي يحوِّل كل الذين نالوا الصبغة المقدسة إلى جسد المسيح.** نحن نتناول الخبز الذي تحوَّل إلى جسد الرب، ويظل في شكله خبزًا ولكنه جسد الرب الذي ندركه بإعلان الروح القدس. هكذا نظل نحن ترابيين إلى أن ندرك أن جسدنا الترابي هو حسب المظهر تراب، وحسب عمل الروح القدس قد اشترك في مجد المسيح. تذكَّرتُ الآباء الذين تجلُّوا بنار الروح القدس؛ الأنبا أرسانيوس ومكسيموس ودوماديوس، وتذكَّرتُ حضور القديس الأنبا مقار تكريس الكنيسة وهو في حالة البهاء والمجد، حتى أن الأنبا بنيامين

أراد أن يرسمه قسًّا بسبب البهاء الذي كان فيه. وهكذا أدركتُ أن النور والبهاء هو في الروح، وأنه نادرًا ما يظهر في الجسد. وعند ذلك بدأتُ أراقب فكري وقلبي، لا لكي أتجلَّى خارجيًّا، بل لكي أتنقَّى داخليًا، فما هي فائدة ظهور نور أو مجد خارجي لا يدوم، لأن الآباء الذين لبسوا الروح القدس نالوا هذا البهاء إلى الأبد، أما شكله الخارجي وظهوره بشكلٍ معروف، فهو لن يظهر كاملاً إلاَّ في يوم القيامة.

لا أستطيع أن أصف لك حالتي الجسدانية والروحية، فقد كنت أشعر بضعفٍ، ورقدتُ عدةَ أيامٍ على الأرض أنام وآكل في فترات متقطعة».

كنتُ أحسُّ برغبةٍ في أن أترك هذا المجاهد الفذ، ولكنني كنتُ أقترب من جوهر الموضوع الذي لأجله تركت كل شيء، ولكن كان الخجل يمنعني من أن أسأل المزيد. وقررت أن أبقى حتى يقول لي «كفاية».

واستمر الأب فليمون في الكلام. قال:

«إن حالتنا الترابية مثل رداء مؤقت تحته الجسد، هكذا حالتنا الروحية تحت تراب الجسد، أي الرداء الترابي، ولكن تحته توجد الحياة الحقيقية الجديدة الروحية. هذا الوجود الحقيقي نحاول نحن أن نهرب منه أو ننشغل عن مواجهته، ولكنه يفرض علينا مواجهته في حالات المرض والتعب عندما تظهر قوة خفية غير عادية تدفعنا إلى المواصلة في الصلاة، في المطانيات، في الوقوف، في حراسة الفكر. سألتُ الرب يسوع أن يخبرني كيف أتعلم حراسة فكري، فقال لي: «يا فليمون حراسة الفكر تبدأ بترك الشهوات والغرور. **مَن يطلب المجد الأبدي يحرس فكره**، أمَّا مَن ينغمس في الأمور المادية المؤقتة يستحيل عليه أن يحرس فكره».

هل تعرف يا أخ كم هي صعبة حراسة الفكر؟ لأننا نظنُّ أننا نسير مع الرب، ولكن بعد وقتٍ يظهر لنا أننا نسير حسب أهوائنا التي تأخذ شكلاً وصورةً مقدسة، ولكن فيها الموت الحقيقي. **ما هو موت الروح؟ هو جهل الإنسان بالحياة الحقيقية. عندما نعيش لأنفسنا ونصبح نحن مصدر وغاية كل شيء فإننا نموت**، نصبح مثل إنسان يكتفي بما لديه،

ويرفض أن يحصل على أي نوع من المعونة، **وهكذا مَن يموت روحيًّا، يظل يحيا لنفسه حتى يموت في حالة من الاكتفاء الذاتي.**

ما هي علاقة هذا بالإيمان بالثالوث؟ وجوابي المباشر هو أن الحياة الجديدة الحقيقية هي حياة شركة معلَنة بالكمال في الثالوث، في تمايز أقانيم اللاهوت وفي وحدة الجوهر. عندما نتشبَّه بالثالوث ندرك أن الوحدة هي وحدة متمايزين. هذه ليست قضية عقلية نتأمَّلها، بل هي قضية سلوكية ندرك منها بالسلوك حقيقة الوحدة وحقيقة التمايُز.

في مرَّاتٍ كثيرة كنت أُراقب نفسي، فأجد في داخلي رغبةً في الابتعاد عن الناس بسبب الخوف من النقد وبسبب الحساسية من الإدانة وبسبب التعب، وكشف لي الرب عن فكري الميت، لأن كل هذه مظاهر للموت الروحي، أي عدم المحبة.

لقد سألتُ الرب أن أتوب، وأن يُحيي قلبي الميت بعدم المحبة، لأن عدم المحبة يُغلق الباب أمام قلبي لاختبار محبة الثالوث. لا أدري كم مرَّ عليَّ من أيام، ولكنني أدركت أن نعمة ربنا يسوع المسيح قد غَرَسَت في قلبي اللُّطف والحنان نحو كل شيء في الخليقة، حتى رمال الدير ورمال البرية، صرتُ أحسُّ بالشفقة لأنني أسير عليها، ولم أعُد أخاف من إنسان، وحتى الذين كانوا يتهمونني بالجنون، امتلأ قلبي شفقةً ومحبةً وصرتُ أُصلِّي لأجلهم. وكلما عَبَرَت في ذاكرتي صور وأسماء الناس الذين أعرفهم، صرتُ أحسُّ بمودةٍ من نحوهم، وأصبحتُ أُسرِع في طلب الرحمة للكل. عند ذلك أدركتُ أن نعمة الروح القدس سكنت في قلبي، وأن الروح المعزِّي استراح في قلبي، لأن البغضة والخوف والحَذَر فارق فكري، ولذلك أصبحت أطلب رحمة الرب يسوع للكل».

قلتُ للأب فليمون: لقد تحدثت عن رحمة ونعمة الرب يسوع ونعمة الروح القدس، فهل أنت تتحدث عن نفس النعمة، أم أننا ننال نعمةً مختلفةً من الابن، وأخرى من الروح القدس؟

نظر إليَّ وابتسم وقال: «هذا سؤال العقل البشري الذي يهوى أن يصنِّف الأشياء. عندما خلق الرب آدم دعاه لأن يعطي أسماء لحيوانات الأرض (تك ٢: ١٩ - ٢٠)، ولكنه لم يطلب منه أن يعطي أسماء للّه. كانت بصيرة آدم الروحية لازالت حيَّةً، وكانت قدرته على حياة الشركة نابعة من النعمة الإلهية التي نالها. نحن نعطي الأسماء لكل طبيعة مختلفة عن الأخرى، هذا مادي، وهذا نبات، وهذا حيوان، ولكل صنف ونوع اسم، أمَّا في الملكوت السماوي، فما هي الأسماء التي يجب أن نطلقها على نعمة اللّه الواحدة؟ في الملكوت الكلّ معًا في اتحادٍ بالثالوث، ولذلك عندما تظهر نعمة ربنا يسوع المسيح أو نعمة الروح القدس، فإننا نستخدم هذه الألفاظ للكلام عن عمل الأقانيم الواحد. احذر يا أخ من أن تسقط في تقسيم وتصنيف العمل الإلهي الواحد، لأن هذا يؤدِّي بك في النهاية إلى تقسيم الثالوث، كما لو كان الثالوث طبائع مختلفة. وحتى عندما نتكلم عن الآب والابن والروح القدس، فهذه أسماء ثلاثة لثلاثة متساويين، وهم معًا في وحدة الجوهر الواحد، لذلك أرجوك أن تفكر دائمًا في أن الجوهر الواحد هو وحدانية اللّه، وأننا دائمًا نقول «الثالوث الواحد غير المنقسم» و«الثالوث المتساوي» لأن عدم الانقسام هو إعلان الثالوث للخلاص، والمساواة هي جوهر المحبة في اللّه. هذا سوف يأخذ وقتًا حتى يستقر في القلب، لأن طبيعة فكر الإنسان والتصاق الإنسان بالأمور المادية، تجعله يميل إلى تصوُّر الأشياء حسب الأحجام والأشكال والألوان، لكننا نعرف أن اللّه روح، وأن الروح لا يخضع للتقسيم، ولا يوجد حجم أو شكل لروح اللّه. وعندما أخذنا الروح القدس، فقد أخذناه نعمةً وعطيةً، وما هو الفرق الجوهري بين كلمتي نعمة وعطية؟ أنا لم أدرس اللاهوت، ولم أتعلَّم في الإكليريكية، ولكنني لاحظت أن الأسفار المقدسة وكُتب الكنيسة لا تميز بين استخدام اللفظين، ولذلك أدركت أن الألفاظ يجب أن تُفهَم بشكل صحيح، وذلك بردِّها إلى العمل الإلهي، وأن لا يُصبح اللفظ هو سبب فصل عمل الأقانيم بسبب تنوع اللفظ. عندما ننال نعمة الاستنارة من الروح القدس، ندرك أن اللفظ المتنوع هو أداة لتمييز تمايُز الأقانيم من أجل فهم نعمة الثالوث الواحد، لكن لا يجب أن يتحول فهم الثالوث

الواحد إلى تقسيم. **عندما نتحدث عن الآب، فنحن نتحدث عن الأصل، عن الينبوع، عن كل شيء. وعندما نتحدث عن الابن، فإننا نتحدث عن إعلان الخلاص والفداء وبشارة الإنجيل. وعندما نتحدث عن الروح القدس، فنحن نتحدث عن سُكنى الله فينا. ولذلك، ما هو الفرق الجوهري بين الآب ينبوع كل شيء ومصدر الابن والروح القدس، والابن الذي أعلن لنا هذه الحقيقة، والروح الذي يسكب كل شيء في قلوبنا؟**

عندما يعثر ضعاف القلوب في هذا التعليم، فإن واجبنا الأساسي هو أن نردَّهم إلى محبة الله، المحبة كينبوع، والمحبة الساعية للخلاص، والمحبة التي تسكب كيانها فينا. والمحبة لا تنقسم، بل تعلِن ما هو ضد الانقسام وتوحِّد المنقسمين.

كان بعض الإخوة من القاهرة يحضرون إلى الدير، وكانت لديهم أسئلة كثيرة جدًا عن الثالوث، وكانوا يتكلمون مع الآباء، وكنت ألحظ أن الذين لديهم رغبة حقيقية في معرفة الله، هؤلاء يسألون عن اختبار الاتحاد بالله، أما الذين لديهم فضول وعجرفة الفكر فهؤلاء يفقدون سلامهم الداخلي ويُسرِعون إلى الموت الروحي عندما يجعلون أنفسهم قضاة. هل تذكر هذه العبارة الهامة لأحد القديسين: «يستحيل على أي إنسان أن يكون تلميذًا وقاضيًا في نفس الوقت. إمَّا تلميذ، وإمَّا قاضٍ». ولذلك، ما هو الاختبار الحقيقي لنعمة الله الذي يساعدنا على تذوق المحبة الإلهية؟»

كانت عتمةُ الليل قد غطَّت كل شيء. وساد هدوءٌ كنت أسمع فيه دقات قلبي. وشكرتُ الله الذي أتاح لي فرصة العثور على هذا الكنز العظيم، ولذلك قرَّرتُ أن أبقى أسأل وأسمع حتى يطردني...

«نحن نختبر علاقتنا بالثالوث أولاً في الصلاة، فهي المدرسة الحقيقية التي يتعلم منها وفيها الإنسان الإيمان. في بداية رهبنتي كنت أسأل نفسي عن سر انشغال الآباء مؤسِّسي الرهبنة بالصلاة حتى أنهم تركوا العالم، وكل ما فيه من أجل الصلاة.

كنت أظنُّ أن الإنسان يترك العالم لأنه مصدر الشر والفساد، ولكنني أدركت أن الشر والفساد هو في قلب الإنسان أولاً، ولذلك تَركُ العالم والتخلِّي عن المقتنيات لا يفيد مَن كان قلبه شريرًا، بل يتحول الشر إلى قوة فكرية تجعله يستعيد ما تركه بوسائل متنوعة.

ونحن في الصلاة، نواجه الثالوث منذ أن نرشم علامة الصليب ونصلِّي الصلاة الربَّانية وصلاة الشكر، وننتهي بذكصولوجية للثالوث الواحد. لكن هذا يجب أن يستقر في قلب الإنسان كمدرسة يدخلها بالمحبة والخوف المقدس، وهو غير خوف الخطية.

عندما نصلِّي، فإننا نعود إلى الآب السماوي في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس. نعود إلى الأبوة بالبنوة وبنعمة التقديس. هل هذا الكلام سهل عليك؟ نجرِّب أن نقول نفس الحقيقة بصورة أخرى: الآب هو أصل الوجود والحياة، والابن هو خالق كل الأشياء، والروح هو مكمِّل كل الأشياء. لذلك، في الصلاة نحن نعود كأبناء في الابن، ونعود إلى الآب الذي خلقنا في ابنه، أي دعانا بالخلق الأول إلى البنوة، وعندما فشلنا وسقطنا، ردَّنا بالابن، بالخلق الجديد، وعندما جدَّدنا في ابنه، قدَّسنا، أي أكملنا بالروح القدس.

لنجرِّب أن نرى هذه الحقيقة بصورة لفظية أخرى: الإنسان كائن وموجود وله وجود روحي وجسداني، ولذلك هو يحيا حسب الوجود الروحي كمخلوق، فما هي علاقة المخلوق بالخالق؟ إمَّا أن تتوقف عند مجرد الخلق، وهو أمرٌ سهل، وإمَّا أن تتقدم إلى ما هو أعلا وأسمى من الخلق، أي التجديد. أنت ترى الموت يفترس كل الأشياء، حتى عندما نأكل، فإننا نقتل حتى النبات. كل شيء إمَّا آكل أو مأكول، ولذلك عندما نحيا، فإننا نأكل لكي نتحول من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة، ثم نموت لكي تأكلنا الأرض. هذه الدورة تؤكد لنا حقيقة واحدة، وهي أن كل شيء في تحوُّلٍ من آكل إلى مأكول. فما هو مصير الإنسان إذا كان يأكل اليوم لكي تأكله الأرض بعد ذلك؟ المصير الحقيقي هو أن

نعود إلى اللّه، ويصبح الآكل، أي الإنسان قادرًا على البقاء بفضل غذاء سماوي يأكله الإنسان، فيحوِّل كيان الإنسان إلى حياة. هذا الطعام هو كلمة اللّه، وسر التناول، وسُكنى الروح القدس. نحن نأكل كلمة اللّه عقليًّا بالفهم والتأمُّل والصلاة. ونحن نأكل جسد الرب ودمه لكي نتحول إليه. ونحن نأكل الروح القدس روحيًّا عندما نتغذَّى على القوة والحكمة والتقديس وسائر القوى الأخرى التي تعمل فينا لكي نصبح صورة المسيح. **لقد كوَّن الروح القدس ناسوت الرب، معلنًا بذلك أنه يريد أن يكون ناسوت كل إنسان حسب هذه الصورة. نحن نأكل لكي نعود إلى الآب، هو مصدر كل هذا، هو يؤكل في الابن وفي الروح القدس**. هل تجد هذا الكلام صعبًا؟»

قلت له: نعم، لسببٍ واحد، وهو أننا لا نتحدث بهذه الصورة وبهذا الأسلوب عن الثالوث، حتى في الكلية الإكليريكية. فقال: «هذا كلام راهب بسيط أدركته نعمة اللّه الغنية. وإذا كانت عبارة أو فعل «يأكل» صعبة، فإن عبارات الإنجيل تؤدِّي إلى هذا المعنى، لأن سُكنى الروح القدس فينا للتقديس هي غذاء إلهي للإنسان. نحن نأكل المَّن السماوي الذي يقدِّسه الروح القدس على المذبح، لكي بالتناول نمتلئ من الروح القدس، ونصبح هياكل للّه الآب. يا أخ لا تُحلل كل ما تسمعه أو تقرأه في الكتاب المقدس، بل خذه كطعام سماوي يعطي الحياة، وبعد ذلك إن أردت أن تُحلل وتدرس، فهذا يصبح محفوظًا من الفكر العقلاني غير المستنير بالروح القدس، لأن الإنسان الذي يتذوَّق ويختبر ويستنير بالروح القدس، تصبح بعد ذلك دراسته غنيةً بالروح القدس، ويصبح التحليل خاضعًا للاختبار وليس للفكر الذي لم يتذوَّق.. وعندما نقول يتذوَّق، فنحن نتحدث ليس عن طعام مادي نأكله بالأسنان واللسان، بل عن طعام سماوي نناله من اللّه لكي نحيا به روحيًّا».

وقال عبارته المأثورة: «نكمل الكلام بكره إن شاءت نعمة ربنا يسوع المسيح».

الوجود الحقيقي

حسب نعمة الثالوث

(٢)

«نحن نوجد في الحياة عراةً تمامًا، نولد عراة ونموت عراة، ولذلك نحتاج إلى كل شيء؛ إلى الهواء وإلى الماء، إلى الطعام وإلى الملابس، إلى السكن، ولا نستطيع أن نحيا بدون هذه الضروريات، كما أننا لا نستطيع أن نحيا بدون الآخرين. نحن ندخل الحياة في فقرٍ كاملٍ، وننال نحن الحياة من اللّه، ومن الكون ومن الناس. هذا الغنى، إذا كان حسب الوجود الحقيقي على حسب نعمة اللّه، فإننا نحيا حياةً إنسانيةً حقيقية، أمَّا إذا كان الوجود المزيَّف الذي زيَّفته الخطية، فإننا نسقط في اليأس والجهل وسائر الخطايا.

لاحظ يا أخ أن أصل الكبرياء هو عظمة الإنسان التي نالها كصورة اللّه، ولكن هذه العظمة الإلهية التي فينا تتحول من نعمة إلهية إلى خطية قاتلة تؤدِّي إلى هلاك النفس والجسد معًا. نحن عظماء بنعمة اللّه، ولكن هذه العظمة نحوِّلها إلى صفة شخصية وقدرة ومكانة خاصة بنا، ونفصلها عن مصدرها الحقيقي، وهو اللّه. حتى الزنى، هو أصلاً رغبة في الاتحاد بالآخر، ولكن عوضًا عن الاتحاد الروحي الذي يسبق الاتحاد الجسدي، نتَّجه إلى الاتحاد الجسدي دون رابطة محبة، ودون شركة حقيقية، فيصبح الاتحادُ زنىً. حتى القتل، هو أصلاً رغبة في العطاء والجود، ولكن بدلاً من أن نجود بحياتنا ونعطي ذواتنا، نجرِّد الآخرين -بسبب الخوف والبغضة- من الحياة لكي نحيا نحن.

عندما تتحد الرذائل معًا، تتحول إلى موت روحي تُصارع فيه كلُّ رذيلةٍ الأخرى؛ فالزنى مثلاً يحتاج إلى شيءٍ من البذل حتى تسقط الضحية،

وهكذا تأخذ هذه الشهوة من فضيلة العطاء قدرًا قليلاً حتى تتم الخطية.

الخوف من فقدان الشركة مع الله له جذرٌ في حُب الإنسان لنفسه، لأن الذي يُحب نفسه لا يرغب في الهلاك، ولكن حُب النفس يتحول إلى رذيلةٍ إذا اتَّحد بالكبرياء، واتحاد حُب النفس بالكبرياء يجعل الإنسان في حاجة إلى قدرٍ من التواضع، حتى يستطيع أن يحيا مع غيره. قال الأنبا إشعياء الإسقيطي إن الكبرياء تمنع المبتدئين من السقوط في الزنى، لأن حُب النفس والتمسُّك بالسيرة الصالحة النابع من الكبرياء لا يسمح بخطايا ظاهرة مثل الزنى أو القتل.

وحدة الفضائل تختلف عن وحدة كاذبة للرذائل، لأن الرذائل تتعارض. وعدم بقاء الوحدة هو سر هلاك الرذائل معًا عندما تتبدد أفكار وشهوات وخيالات الخطاة، كذلك يقول المزمور: «تتبدد عظامهم عند الجحيم»، أي يفقدون وجودهم المزيَّف. ويقول المزمور: «في ذلك اليوم تهلك كافة أفكارهم»، لأن أفكار الشر تتبدد عندما يكتشف الإنسان فسادها.

أمَّا الفضائل، فكل فضيلة تُغذِّي الأخرى. المحبة تحتاج إلى التواضع، والتواضع يحتاج إلى البذل، والبذل الحقيقي يحتاج إلى الإفراز. ولذلك، كل ما هو قابل للاتحاد بغيره يبقى، أمَّا ما هو متعارض مع غيره فهو يفنى. ولذلك، في النظام الكوني كله، العناصر التي تتَّحد معًا تعمل من أجل غاية، ولكن بقاء هذه العناصر معًا مرهون بالاتحاد.

لقد ذكرتُ لك هذا حتى تدرِك **أن غاية إعلان الثالوث هي الاتحاد بالله، وقد وضع الله هذا الاتحاد في اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص أقنوم الابن ربنا يسوع المسيح رب المجد، لكي بهذا الاتحاد نؤهَّل للاتحاد بالآب وبالروح القدس في يسوع المسيح.** نحن نقبل الروح كما يقول الرسول في «عربون»، لكي ننال الكل في يوم مجدنا في المسيح، أي يوم القيامة. لاحظ يا أخ أن كلمة «عربون» تقال عن مُقدَّم الثمن، وهو جزء لا يمكن فصله عن الثمن. وعندما تذكَّرتُ ما ذَكَرتَه عن الجدال حول المواهب والأقنوم عندكم في الإكليريكية، بكيت، فقد تحوَّلت سُكنى الروح

القدس إلى جدال، وليس إلى قبول نعمة وتذوُّق لهذه السُكنى.

ما هي فائدة دراسة اللاهوت، إذا كانت هذه الدراسة لا تؤدِّي إلى فهم سِر المسيح وتذوُّقه.

لاحِظ يا أخ، نحن ننال بداية اتحادنا بالله في يسوع المسيح، وفيه نؤهَّل لنوال نعمة الروح القدس. لقد حلَّ الروح على الرب في المعمودية لكي ننال نحن شركة في مسحة الرب وندعى مسيحيين، وبحلول الروح القدس نؤهَّل لأن نصبح شركاء المسيح في علاقته مع الروح ومع الآب. هذا هو جوهر الخلاص لأن الخلاص شركة.

حاوِل يا أخ أن تفهم أن الكلام عن التوحيد يقال من أجل طمس رسالة الخلاص، مثل الذي يتحدث كثيرًا عن المياه ويرفض الحديث عن النار مع أن النار ضرورية للحياة. إذا كان التوحيد لا يؤدِّي إلى وحدة، فما هي فائدة كلامنا عن التوحيد؟ لكن محب البشر الصالح أعطى لنا الثالوث لكي يؤسِّس الخلاص على وحدانية الله كأساس للاتحاد، ويؤسِّس الاتحاد على أساس تمايُز الأقانيم. هذا أشبه بمن يكشف عن ذاته، أي مثل الإنسان الذي يخلع ملابسه حتى نرى يديه وذراعيه وقدميه. لقد خلع الله رداء الاحتجاب وأعلن عن ذاته، ولذلك صار لنا قدرة لأن نُدرِك حقيقة الوجود الإلهي حسب استطاعتنا الإنسانية».

الوجود الحقيقي

حسب نعمة الثالوث

(٣)

«إذا بحثنا عن أسباب الاتحاد وغايته، وجدناه ثابتًا في الخليقة. فكلُّ كائنٍ مهما كان، يسعى لأن يأخذ شيئًا من غيره، وأن يعطي لغيره. لقد ذكرتُ لك أن كل النظام الكوني يعتمد على حقيقة بسيطة: «الآكل والمأكول»، نحن نأكل لكي نؤكَل، ونؤكَل لكي تنمو الكائنات الأخرى. لكن الجسد يتَّحِد بما يأكل ويتكون مما يأكله. ولذلك نرى أننا حسب ما نأكل؛ إمَّا أن تنال أجسادنا قوة، وإمَّا أن تضعف. مَن يأكل طعامًا سامًا يموت. كان الآباء يقولون لنا إن الاكتفاء بالخبز والماء والملح يؤدِّي إلى عفة الجسد فقط، لأن العفة والبتولية الصحيحة تأتي مِن شركتنا في المسيح.

ولكن خلف الآكل والمأكول نجد الاتحاد بما نأكل وبما نتناوله. ماذا يعني هذا بالنسبة لإيماننا بالثالوث؟ الجواب بسيط: نحن نأكل عقليًّا أو روحيًّا لكي نحيا ونتَّحد بمَن نأكل، أي حين نشترك فيه، لكي نصبح مثل أقنوم الابن المتجسِّد. نحن لن نصبح مثل الآب أو مثل الروح القدس، بل نصبح مثل الابن بسبب التجسُّد، وحسب التجسُّد ننال ذات كرامة الناسوت.

يبدو على غير المدرَّبين، أي الذين لم ينالوا استنارة الروح القدس، أن هذا كلامٌ صعب، ولكن ما هي كرامة الإنسان في الابن المتجسِّد؟ البعض يظن أن الجسد وسيلة إلى الصليب والصليب وسيلة إلى القيامة. هذا تصوُّر محدود بخبرة معينة، وهي خبرة مَن لا يجد في المحبة الإلهية أي تكريم للجسد، كأن اللّٰه خالق الأجساد قد تخلَّى عن الطبيعة الجسدية

أو المادية وتركها للفساد والموت. نحن حقًا مِن تراب الأرض، لكن لماذا اتَّحد ترابُ الأرض، أي الإنسان بلاهوت اللّه الكلمة؟ في بداية رهبنتي كنتُ أسمع قصص البستان وقصص الآباء الذين كان لهم سلوكٌ فاضلٌ مقدسٌ في رفض تكريم الجسد، وفي تناول أحقر الأطعمة وفي السهر الطويل. كنت أولاً أرى هذا بطولة روحية نادرة، ولكنني بدأت أُصلي بحرارة واشتياق لأنْ أعرف التعليم الروحي الذي جعل هؤلاء يتصرفون بهذا الشكل. وبدأت الحقيقة تظهر أمامي بسبب إنارة الروح القدس لفكري المظلم. بدأتُ أرى أن هؤلاء الأبطال عاشوا بهذا الشكل لأن قلوبهم كانت يَقِظة، ولذلك لم يوجِّهوا أنظارهم نحو محبة الجسد، عَبَّروا عن جحد الذات مِن أجل الحصول على المحبة الأكبر بجحد الجسد، ولكن الرب يسوع المسيح المتجسِّد من والدة الإله قال لي: «يا فليمون أصل الجسد في الروح. اِفهَم هذه الحقيقة لكي تحيا" . فقلت له: يا رب أنر عقلي وضميري لكي أفهم. فقال لي: «اِبحث عن الأصل وأنت تخلُص». ولم يكن الرب يريد أن يفرض عليَّ سلوكًا معيَّنًا. أدركتُ أن النسك ليس وسيلةً، بل غاية. وأدركتُ أن محبة الإنسان لجسده نابعة من القلب، وأن كل أعضاء الجسد دون استثناء هي في القلب.

كنتُ أضع شمعة أمام أيقونة الثلاثة مقارات، وسمِعتُ صوتًا يقول لي: لماذا لا تجعل من لسانك شمعة تسبِّح وتشكر الرب؟ وتخيَّلتُ أنه أحد الرهبان يحدثني من داخل الهيكل، ولكنني بحثتُ ولم أجد أحدًا في الكنيسة، وعَلِمتُ أنه صوت سماوي.

لماذا نريد أن نجعل الممارسات الخارجية هي مقياس التقوى؟ ولماذا نهتم بالخارج إلى هذا الحد الذي يصبح هو مقياس الحق؟ لأن الجسد عندنا هو الحقيقي، والقلب غريبٌ وبعيد، لا نريد أن ندركه أو نسعى وراء اكتشاف ما خُزِّن فيه من نجاسات وعادات رديئة. وعندما يفشل الجسد في تحقيق الغايات التي نسعى وراءها نحتقره.

لم يكن ميلاد الرب وسيلةً، ولم يكن صَلبُه وسيلةً، ولم تكن

قيامته وسيلةً، كان ميلاد الرب من البتول هو الأساس الذي عليه بُنِيَت الخليقة الجديدة، وكان الصليب هو سورٌ عظيم لعدم الفساد وغلبة الموت، سورٌ لا يسقط أبدًا، وكانت القيامة هي سقف البيت الجديد، أو هيكل الله الحي إلى الأبد في مجد الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح رب المجد.

هكذا تكوِّن نظرتنا للجسد، نظرتنا للتجسُّد.

وكنت أسير في البرية ذات يوم، ووجدت «بَعر» الجِّمال[1]، وقد تحوَّل إلى ما يشبه «الكرة» وأحاطت به الرمال. وتذكَّرتُ كيف يجمعون مخلفات الحيوانات في قريتنا كـ «سَبَخ»[2] لكي يعود ما أكله الحيوان من نباتات إلى النباتات. ثم سألت ما الذي يمنع كل هذا من أن يصبح قمح القربان وخبز الإفخارستيا، أي سر الشكر؟ .. وشكرتُ الربَّ الذي قاد فكري إلى تصوُّر وفهم أن الآكل والمأكول ليس إلى عدم، بل إلى تحوُّلٍ، لأننا نأكل الطعام السماوي لكي نكون سمائيين. هذاً هو سبب اتحادٍ اللاهوت بالناسوت، أي تحوُّل الإنسان في المسيح بالاتحاد بالمسيح إلى كائن سماوي ينال من الرب الحياة الأبدية الكاملة في يوم القيامة، ويأخذ العربون هنا في الحياة على الأرض».

كنت قد قرأتُ العظات الروحية للقديس مكاريوس الكبير، وكانت لدينا طبعة جيدة نُشِرت في بطريركية البابا كيرلس الخامس. وحاولتُ جاهدًا أن أحصل من الأب فليمون عن أي تعليم عن تجلِّي الجسد الذي يظهر بوفرة في العظات الروحية، ولكنه اعتذر في رقةٍ وقال: إنه لم يقرأ هذه العظات. وأشار عليَّ أن أقرأ صلوات المعمودية المقدسة في كتاب خدمة الأسرار في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وقرأتُ الكتاب، ولكنني لم أفهم منه شيئًا بالمرة. كانت بساطة الصلوات أعظم بكثير مِن كل ما أعرف، وهكذا قال الأب فليمون: إن الأمور البسيطة الواضحة

١- فضلات الإبل.

٢- يجمع الفلاحون فضلات الحيوانات، ويقومون بمعالجتها بطريقة معينة لاستخدامها كسباخٍ يسمِّدون بها الأرض.

لا يُدرِكها الذين يفتِّشون عن الأفكار العالية.

وجلسنا ذات يوم، وكان عصرًا غريبًا. كان طقسُ شتاءٍ باردٍ، وكانت سماءُ البرِّية حمراء مثل الدم، والرياح تولول في كل مكان.. ومِن تحت باب قلاية أبونا فليمون، كان الرمل الناعم يدخل بوفرة... ومع ذلك بدأتُ أقرأ له صلوات المعمودية، وبدأ يشرح لي معانيها... تحوُّل الإنسان في المسيح من ابن جسداني إلى ابنٍ روحاني، إشراق نور الروح القدس ونوال ختم الرب، أيٍ صورته السمائيةٍ التي تُطبَع فينا، ثم تُختَم بعد ذلك على كل عضوٍ في الجسد الجديد الذي ينال ٣٦ رشمًا من رشومات الميرون. وتحوَّل هذا الحديث غير المتوقع في السنوات التي سافرت فيها إلى إنجلترا إلى موضوع رئيسي في رسالة الدكتوراه... هكذا كانت استنارةُ هذا الإنسان هي استنارةٌ لي...

الوجود الحقيقي

حسب نعمة الثالوث

(٤)

«الحياة الجديدة حسب نعمة الله هي حياة تعتمد على الرب يسوع المسيح، وعلى سُكنى الروح القدس فينا. لقد أعطانا الرب يسوع الروح القدس لكي يؤكِّد لنا ثلاث حقائق هامة:

١- إننا لا نحيا مثل شعب العهد القديم؛ لدينا التوراة والأنبياء، بل نحيا الحياة الجديدة؛ لدينا كلمة الله والروح القدس نفسه الذي أعطانا الكلمة، والذي يعمل بموهبة النبوة، أي موهبة التعليم في الكنيسة جسد المسيح. **كنيسةُ العهد الجديد ليست مجرد شعب يسمع كلمة الله، بل هي جسدُ المسيح الذي يسكنه الروح القدس.**

٢- نحن نحيا معتمدين على نعمة الحياة الجديدة، لأننا لا نحيا فقط بقوة واتزان واستنارة الفكر بقراءة الكلمة المقدسة في الأسفار، بل نحيا بقوة الروح القدس الذي يعطي لنا الثبات في المسيح، لأن الرسول يقول: «ولكن الذي يُثبِّتُنا معكم في المسيح هو الله الذي أعطانا عربون الروح القدس في قلوبنا عندما مَسَحَنا» (راجع ٢ كو ١: ٢١ - ٢٢).

٣- بسبب صعود الرب ودخوله قدس الأقداس، أخذنا عطية الروح القدس، نفس الروح الذي كوَّن جسد الرب، والذي به مُسِحَ في نهر الأردن، لكي ندرك أن علاقتنا الخاصة بالمسيح ليست علاقة جسدية ورابطة عقلية، بل علاقة روحية.

لقد أعطانا الرب روحه القدوس لكي ندرك أن تحوُّلَنا بالروح القدس، سيكون مثل تحوُّلِه؛ يجب أن نولَد عندما نموت معه لكي تتكون الطبيعة الجديدة فينا، أي طبيعة المسيح.

العقل الإنساني المحصور في الجسد ، أي العقل الجسداني يسأل: لقد وُلِدَ الربُّ ومات على الصليب وقام حيًّا .. فكيف يجب أن نموت معه لكي نولَد من جديد؟ لماذا سَبَقت الولادةُ الصليبَ، بينما في تجديدنا يسبق الموتُ الولادة؟ والجواب سهلٌ على مَن يدرِك أن أعظم ما يواجه الإنسان هو الموت، وأن الموت هو سبب كل خطايانا ، لأننا بسبب الموت نحاول الدفاع عن حياتنا المائتة ، ونحاول أن نجعلها حياةً خالدة ، ولكن في النهاية نفشل ونموت. وأيضًا نحن نبدأ من حيث انتهى الرب؛ نبدأُ بموته المحيي وقيامته لكي يدخل ميلاد الرب بعد ذلك في حياتنا. نحن نبدأ من حيث نحن، أي الموت، ولذلك ندخل مباشرةً إلى سر الصليب والقيامة لنجد سر ميلاد الرب، أي سبب ميلاده من الروح القدس. لقد قال الرب للتلاميذ: «أنتم الذين اتبعتموني في التجديد سوف تجلسون على كراسي»، أي سوف ننال ذات المجد الذي حكم وأدان المجد القديم، مجد إسرائيل الزائل أمام مجد المسيح الملك الحقيقي.

هكذا يجمعُ المسيح موته وقيامته ويحوِّله إلى ميلاد جديد للإنسانية. وفي الحقيقة، إذا تأمَّلنا موت الرب على الصليب، أدركنا أن هذا الموت لا يختلف عن ميلاده من البتول والدة الإله سوى أنه كان مواجهةً صريحةً مع موت آدم. **عندما وُلِدَ الربُّ من العذراء، وُلِدَ بدون أبٍ جسدي، ليس لأنه يكره الزواج، بل لأن الميلاد الطبيعي هو ميلادٌ لا يدومٍ ويضربه الموت، أمَّا الميلاد الروحي من الروح القدس فهو ميلادٌ يقوى على الموت. هكذا كانت أول مواجهة بين الرب والموت في مزود بيت لحم، لأنه أخذ طبيعة إنسانية كاملة كما تقول الكنيسة: «شابهنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها»، وأخذ الطبيعة القابلة للموت في المزود وجعلها طبيعة حيَّة بالاتحاد بأقنومه**، وبها غَلَبَ الخطية عندما عاش بها قبل أن يُذبَح على الصليب، ولما جاء إلى الجلجثة جعل طبيعته القدوسة الكاملة تواجه الموت نفسه الذي لا يوجد له جذرٌ في الخطية، لأن الرب كان بلا خطية، ولكنه جاء إلى الموت، وهو هنا ليس قوةً خارجيةً يواجهُها الرب خارج كيانه، بل قوة داخل كيانه، قدَّم الربُّ ذاته، فنزع رغبة البقاء

والانفصال عن الآب التي كانت في آدم وأبادها بتقديم ذاته تقديمًا حُرًّا غير مقيد، فنزع من الطبيعة الإنسانية اعتمادها على ذاتها في البقاء، وهي ذات الطبيعة الإنسانية التي كُوِّنَت بواسطة الروح القدس في رَحِم والدة الإله، والتي اعتمدت تمامًا على الاتحاد وعلى مسحة الروح القدس.

حاول تفهم يا أخ، لم يَمُت الربُّ يسوع ذات موت آدم، بل مات موت الصليب، وبذلك رَفَعَ حكم الموت بموته.

عندما أراد أن يبيد الموت جاء إلى ذات الطبيعة التي لها فكر جسداني عن الموت، ذات الطبيعة التي ترفض الله وتُعبِّر عن هذا الرفض بمحبة الخطية. وعندما أخذها في رحم البتول، أخذها كما هي لكي ينقلها بالاتحاد به إلى طبيعة جديدة، ولذلك طبع فيها بالاتحاد بنوَّته للآب، صارت الإنسانية في المسيح بسبب التجسد «متبنِّية»، أي نالت «التبني» بالاتحاد، وصارت تدعو الآب: «أبًّا أيها الآب».

ولكن كان أمام الرب العائق الأكبر وهو الموت، والموت هو ثمرة الخطية أو أُجرتها حسب عبارة الرسول بولس، فكيف يبيد الموت من طبيعة إنسانية لم تعرف الخطية؟ هي مجرَّبة في كل شيء مثلنا، وهي مجرَّبة بكل الخطايا، ولكنها لم تخطئ، من أجل ذلك السبب وحده، أي أن الرب مجرَّب، جاءت تجربة الموت في البستان قبل الصليب، جاز الربُّ تجربة قبول الموت، وقَبِلَ الموت في البستان، وأخذ الكأس، ولاحِظ أنه قدَّم الكأس دم العهد الجديد في العلية حُرًّا، أمَّا الآن فهو يأخذ الكأس في تجربة الموت التي يدخلها حُرًّا قدوسًا، **ولكنه يحول جسده ونفسه إلى الحياة الآدمية التي لا تريد الله وترفضه، أي جذر الخطية**، هذا التحوُّل يحدث في كيانه وأقنومه الإلهي المتجسِّد، وبذلك يجعل من ذاته آدم الأول، ولكن ليس آدم الواقع تحت قوة التجربة والأسير، بل آدم الذي يحيا التجربة لكي يرفع ويزيل قوتها. كان الرب مثل إنسان يُجرَّب بأن يحمل جبلاً كبيرًا، ولذلك أخذ قوة الحياة من أقنومه الإلهي، وقوةُ الموت قَبِلَها في ناسوته، وأبادت قوةُ الحياة قوةَ الموت، ولذلك قال: «قد

أُكمِل»، وعندما نكَّس رأسه وأسلم روحه للآب عبَّر بذلك عن قبوله الموت الاختياري الذي أباد قوة الموت الآدمي الذي جاء بالحكم والدينونة. وتُعلِّمنا الكنيسة هذه الحقيقة في عبارة موجزة: «يا مَن ذاق الموت بالجسد في الساعة التاسعة»، لأن الرب ذاق الموت بالجسد لكي يجعل هذا الموت الجسداني الذي يتم فيه انفصال الروح عن الجسد، هو بداية إبادة الموت الذي يتم فيه مصالحة الروح بالجسد، وَرَدِّ الوحدة الإنسانية الضائعة والمفقودة بسبب السقوط.

مِن هنا يبدأ التحوُّل في كيان الإنسان، وهو تحولٌ بقبول موت الصليب كبداية للحياة الجديدة. عندما نقبل موت الصليب نؤهَّل للحياة الجديدة، أي الحياة التي نحوِّل فيها -بسبب الالتصاق بالرب- قوة الموت الطبيعي إلى قوة اتحاد بالرب مثل نارٍ مشتعلة تأكل كل شيء، أما الآن فقد صارت النار مشتعلة في الأشواكٍ تبيد ما هو غير نافع، أي الخطية.

كيف أخذ الموت هذا التحوُّل في المسيح؟ والجواب سهل لمن يدرك أن كل ما فينا تحوَّل في المسيح إلى حياة من نوع آخر. تحوَّل الموت إلى رفض للخطية، وتحوَّل الموت إلى قوة في المسيح تبيد الخطايا. صدقني عندما نخاف الغضب، نفقد أكبرَ عَونٍ لنا، لأن الغضب يتَّحد بقوة الموت ويقتل الخطايا.

غيَّر الربُّ الموت بالصليب، فلم يَعُد الموت حكمًا ودينونةً، بل صار الموت سِرًّا اسمه «المعمودية». ولم يعد الموتُ انفصالاً عن الله، بل صار الموت سِرًّا اسمه الميرون. وعندما تُعلِّمنا كنيستنا أننا في سر الميرون نُرشَم بحنوط الرب التي وُضِعَت على جسده، فإننا نُدرِك من هذا التسليم أن موت الرب على الصليب صار بداية سُكنى الروح القدس فينا، لأن طبيعة الرب التي أخذها من العذراء ومن الروح، الطبيعة التي ليس لها أب جسداني، تصل إلى كمالها عندما تواجه الموت، أي الرغبة في الحياة بدون الله، وتُبيد هذه الرغبة تمامًا، وتجعل الرغبة والإرادة الحقيقية للحياة الحقيقية هي الاعتماد التام على الآب. هذا ما جعله الرب سِرًّا جديدًا للحياة الجديدة».

الوجود الحقيقي

حسب نعمة الثالوث

(٥)

مرَّت سنوات قبل أن أجلس لكي أدوِّن كل ما سمعته. كانت كراساتي القديمة قد خُزِّنَت في صندوق خشبي قديم عاش معي، ورافقني في كل تنقلي. الأوراق صار لونها أصفر بفعل التراب والحرارة والرطوبة. ثم جاء انتقال الأب فليمون نفسه الذي لم يكن يريد أن يكتب، لأنه -كما سمعت- كان لا يجيد الكتابة، وكانت كل مصادره الكتاب المقدس الذي يسمعه في الكنيسة، وصلوات الكنيسة. لقد تردَّد في قراءة صلوات المعمودية، ولم أكن قادرًا على أن أسأله ما إذا كان يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كانت له ذاكرة عجيبة جدًا. كان يحفظ أعياد الشهداء، ويعرف التقويم القبطي، وما هو مدوَّن في السنكسار، وكان يردد مقاطع كثيرة من الكتاب المقدس. أحيانًا كان يردد أصحاحات كاملة من العهد الجديد بجانب المزامير قبل أن نبدأ في الكلام، وكانت عبارته المأثورة: «كلام الله حي، ويجب أن يسبق كل كلام»، ولذلك كنتُ أكتفي بأن أسمع مع قليل جدًا من الأسئلة. كنتُ أخشى أن تضايقه أسئلتي. كان يقول دائمًا: «الاختبار الحقيقي هو المصدر الثاني لمعرفتنا الروحية، والمعرفة الروحية الأولى هي الكتاب المقدس وكُتُب صلوات الكنيسة».

كان هذا هو منهج قداسة البابا كيرلس السادس، وكانا كلاهما يجيب على أي سؤال من صلوات الكنيسة، عبارة واحدة وأحيانًا كلمة واحدة كانت كافية.

عندما وصلنا إلى الكلام عن الحياة الحقيقية حسب نعمة الثالوث،

توقَّعتُ أن ينتقل الأب فليمون إلى الحياة العملية، إلى السلوك حسب هذه النعمة. ولعله أدرك ما يجول في قلبي لأنني أحيانًا كنتُ أحسُّ أنه يجيب على ما في قلبي من أفكار، ولذلك لم أحاول أن أتدخَّل مطلقًا في تحديد الموضوعات، بل كنت أسأل، وكان ردُّ السؤال الواحد يستغرق عدة أيام، ولذلك تركته يتكلم كيفما شاء.

قال الأب فليمون: «إن مشكلة الإنسان هي فقدان الحس الروحي. نحن نحيا في عالم مادي كل ما فيه يُقاس بالأحجام والوزن واللون، ولكن الله، بل وحياة الإنسان الفكرية ليست كذلك. الفكرة الواحدة لا يمكن أن تُوزَن ولا يمكن أن تُقاس، وليس لها لون أو رائحة، وحتى الآباء القديسين الذين كانوا يشمِّون رائحة الزنى، كانوا يشمِّون رائحة أجساد الزناة، لأن لها رائحة عَفِنة. عالم الروح عالمٌ آخر لا نملك أن ندخله بما في عقولنا من صورٍ مهما كانت، بل لا بُد من تنقية الفكر، ولذلك، بداية تصوُّر الثالوث -بشكلٍ صحيح- لا يمكن أن نجدها في عالم المادة والعالم المحسوس، حتى التشبيه القديم بقرص الشمس والنور والحرارة هو تشبيهٌ يهدف إلى اكتشاف وحدة ثلاثة أشياء معًا هي واحد وثلاثة، ولكن الحس الروحي يجب أن يرتفع إلى ما هو أعظم وأكثر من ذلك، إلى الحياة الروحية نفسها، حيث يقف التشبيه عند باب الاختبار نفسه، ليُدرِك أن الله روح، وأن الروح يجب أن تُدرَك روحيًّا، أي ليس بمقاييس جسدانية.

جاء أحد الأخوة مرةً وسألني إذا كان الثالوث يقف صفًا واحدًا، فقلت له الصف خط واحد، والخط الواحد صورة مادية. فقال لي: إذن، هم دائرة؟ فقلت: الدائرة أقرب، ولكن الدائرة مثل الخط، صورة مادية (لأن الدائرة لها مركز وقُطر) محدودة. فقال: إذن، ما هي صورة الثالوث؟ فقلت له: هي صورة المحبة، وهي صورة نعرفها بالحس الروحي، ولا نقدر أن نحددها بأي شكل مادي. عندما نرى أُمًّا تحمل طفلها فإن الرؤية تجعلك تتذكر حنان أُمك. عندما ترى شابًا يحمل شيخًا مريضًا، فإن الشفقة كَحِسٍّ يُولَد من الصورة المادية التي نراها. تحركنا المحبةُ وحدها

لفهم حقيقة وحدة الأقانيم، لأننا عندما نحب، نجد الوحدة، بل أحيانًا الامتزاج بالآخر. مَن يريد أن يفهم الثالوث لا يحتاج إلى كلام كثير، عليه أن يعبُر من صور المحبة الحسية إلى الشعور بما تحمله المحبة من علاقات يدركها الحس الروحي السليم ويسعى إليها».

وسَكَتَ، وكأنه يدعوني إلى أن أعرف صور المحبة نفسها، وأن أرتفع فوق هذه الصور من عالم النظر بالعين إلى عالم النظر بالقلب.

ثم عاد إلى الكلام وهو يتحدث في رقةٍ وهدوء: «صور المحبة التي يجب أن نراها هي كلها في حياة الرب يسوع المسيح، مِن كل صورة نستطيع أن نتعلم الكثير».

فقلتُ له: أعطني مثلاً. فقال:

«يوجد لدينا ثلاث صور محسوسة وروحية في آنٍ واحد؛ هي البشارة والمعمودية والتجلي، وأكثرهم وضوحًا هي معمودية الرب، لأننا نرى الابن في مياه الأردن، الروح القدس في شكل حمامة، والآب ينادي من السماء: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». هذه صورة محبة يجب أن ترفعنا إلى مشاهدة الثالوث والإحساس به. تأمَّل؛ الآب صوتٌ من السماء لأن الصوت وإن كان مسموعًا، إلاَّ أنه غير منظور بالعين، الابن محسوس ومنظور، وكذلك الروح القدس. لأننا نأخذ من الابن والروح القدس عطايا لها شكل وصورة، ولكن هذه العطايا يجب أن ترفعنا إلى ما هو أعظم وأعلا، إلى صورة غير حسية، أي صورة المحبة نفسها حيث يسود الحس الروحي على الأشكال المرئية».

ونظر إليَّ وقال: «هذا الكلام صعب عليك؟» فقلت له: لا، ولكنه جديد. فقال:

«يحتاج الحس الروحي إلى الإيمان، والإيمان إلى المحبة لأن المحبة تُدرِك من كل الصور والأمثلة التي تقال عن الله أنه فوق كل ما هو محسوس ومنظور. حتى المحبة الإنسانية تموت إذا تمسَّكت بما هو مرئي فقط وتَرَكَت الأمور العالية التي تعلو على الحس، وفشل العلاقات الإنسانية

عائد إلى حقيقة واحدة، وهي تراجُع الروحي والعالي أمام المنظور. تستطيع أن ترى كيف مزَّقت الخطية المنظور وغير المنظور، وكيف تُحوِّل الأنانية والكبرياء وحدة خليقة الله إلى قسمين، لكن الرب بتحنُّنِه وحَّد السماء والأرض تحت سيادته. وعندما قام من الأموات، أعلن حقيقة التدبير: «دُفع إليَّ كل سلطان مما في السموات وعلى الأرض»، لأن هذا السلطان هو الذي يردُّ كل الأشياء ويجمعها معًا تحت سيادة المسيح الحي الذي قام من الأموات لكي يُحيي الخليقة كلها».

ساد الصمتُ. كان قلبي مشتعلاً بمحبة الرب، وأدركتُ أنني عثرتُ على كنز مخفي في حقلٍ حسب قول الرب، وأنه عليَّ أن أترك ما سمعته من آخرين لكي أحفظ هذا التعليم السماوي العالي.

التجسُّد أعلن تمايُز الأقانيم

كانت محاضرات اللاهوت النظري للأب أوجين دي بليسي، وكتاب علم اللاهوت للأب ميخائيل مينا، ومحاضرات أستاذنا الفاضل الدكتور وهيب عطاللّه وغيرها من المصادر المعروفة التي كنا نأكلها. ولم يكن لدينا كتابٌ يشرح لنا الجانب الروحي لعقيدتنا في اللّه، أي الثالوث القدوس. وانشغلنا زمانًا طويلاً بالجانب الدفاعي للردِّ على الاعتراضات العقلية والفلسفية التي قيلت ضد الثالوث، ولكننا لم ننشغل بما فيه الكفاية بالجانب الروحي؛ هل عقيدة الثالوث أساسية للنمو الروحي؟ لم أطرح هذا السؤال بشكل مباشر على الأب فليمون، ليس اشفاقًا عليه، وإنما لأنه كان له أسلوبٌ ظاهر في الحياة الروحية هو أسلوب مَن له نظر روحي ثاقب، يرى أولاً وبعد ذلك يدرس ويحلل ويجد راحته وعزائه في الكتاب المقدس وصلوات الكنيسة.

كانت القِطَع الكبيرة من ثيؤطوكية يوم الأحد، وباقي القِطَع بمثابة مدخل روحي عقيدي للتجسُّد وسائر العقائد الأخرى. ولم يكن الأب فليمون يميل إلى الجدل، بل كان يرى الأمور الإلهية بوضوح وشفافية تجعله يفضِّل السكوت والصمت على الجدل. كان يحب الصلاة، ويرى أن الصلاة هي المدرسة الأولى لتعلُّم اللاهوت.

وتذكَّرتُ عبارة العلاَّمة أوريجينوس كما دوَّنها إيفاجريوس: «اللاهوتي هو مَن يصلي بصوتٍ عالٍ». وكنت أُدرِك أنني أمام لاهوتي فَذ أدرَكَ الأسرار الإلهية، وحفظها في قلبه وصارت اختباره الحي الذي لا يبوح به.

كان يومًا باردًا في شتاء عام ١٩٦٢ وكنتُ قد عُيِّنتُ مدرسًا بالإكليريكية، وكانت مناهج الدراسة هي بعينها لم تتطور، وكانت حصة كتابات الآباء قليلة جدًا. كان قداسة البابا كيرلس قد أوصاني

بدراسة مار اسحق، وكانت مكتبة دير السريان عامرة، بينما كانت مكتبة دير الأنبا مقار في حالةٍ يُرثى لها. ولعلني أذكر هذا اليوم أكثر من غيره، فقد شاء الرب أن يفتح الأب فليمون قلبه لكي يُعلِن ما ناله من أسرار.

قال الأب فليمون:

«في بداية رهبنتي قال لي واحد من شيوخ الدير عبارة واحدة صارت مثل قانون لحياتي. قال يا ابني الرهبنة هي تجسُّد للرب في حياتك، أخذ الرب جسدًا من العذراء لكي يكون أيقونة كاملة، ولكي يجعلك أنت الأيقونة الحية المماثلة (المشابهة) لأيقونته الحقيقية. وأعترِف لك يا أخ أنني كثيرًا ما كنت أرتعب من هذه العبارة، لأنني كنت أرى نقصي وخطاياي، وكنت أجلس وأبكي أمام الرب سائلاً منه أن يغفر لي خطاياي. وقد وجدتُ العزاء في الاعتراف بخطاياي وسلامًا في الصلاة.

كنتُ في الكنيسة في عيد ختان الرب يسوع المسيح، وتذكَّرت كيف قَطَع السكين لحم الرب لكي ينفِّذ ناموس موسى، وصلَّيتُ لكي يقطع السكين، أي الصليب، كل ما في حياتي لكي أنال ختان المسيح (كولوسي ٢ : ١١). وفَتَحَ الربُّ عقلي، فأدركت أن تجسُّد الرب هو اتحاد أقنوم الكلمة الابن بكل ما في الطبيعة الإنسانية من صفات ومشاعر وإرادة وخيال، في النفس، في الذاكرة وفي القلب، وبكل ما في الجسد الإنساني. بدأتُ أشعر بأن محبة الرب يسوع التي تُوصَف بأنها محبة البشر هي محبة خاصة، وبدأت أُصلِّي سائلاً الرب أن أُحب جسدي كما يحبه الرب، ولكنني أدركت أن هذا لن يأتِ بالتأمل العقلي، بل بسُكنى الروح القدس، لأن الروح القدس هو الذي أعطى للابن جسده، وهو محبٌّ للخليقة، حتى أنه يظهر بشكل حمامة أو في ألسنة نارية، فهو يحب الخليقة التي نالت وجودها من الآب بالابن، وهو الذي يدفعها ويحركها بعناية وحرص نحو الآب. علينا أن ننتبه إلى هذه الحقيقة لأن **نظرتنا إلى الجسد هي العائق الحقيقي الذي يمنعنا من الإيمان بكل أبعاد التجسُّد، وأحد هذه الأبعاد هو محبة الرب يسوع لجسده،** وهي

المحبة التي أعلنها في تقديم جسده ودمه لنا في سر التناول.

وقد أدركتُ بعد سنوات من الصلاة والتأمل أن تجسُّد الرب هو أساس عقيدة الثالوث.

كنتُ أسمع الإنجيل في القداسات، وكان فصلٌ واحد يكفي عدة أيام وربما شهور لكي أتذوَّق العسل الخفي في كلمات الرب. أدركتُ أن بشارة يوحنا هي الأساس الرسولي الذي يجعلني أُدرِك أن التجسُّد هو أساس إعلان الثالوث. نحن نرى ما ذُكِر في العهد القديم مِن خلال تجسُّد الرب. وحسب كلمات الكتاب المقدس، **نحن لا نملك أي علاقة مِن أي نوع مع الآب أو الروح القدس إلاَّ مِن يسوع المسيح رب المجد وفيه، فهو يعطي لنا مكانةً في حضن الآب، لأن الذي في حضن الآب كل حين هو رب المجد، وهو رأس الإنسانية. ومن الخطأ أن نتصور أن حضن الآب محصور ومحدود، وأن الرأس وحده هو الذي في حضن الآب، ولكن كل الإنسانية في رب المجد يسوع المسيح كائنة في حضن الآب، ولكن لا يفهم هذه الحقيقة إلاَّ المؤمنون بيسوع.**

من السهل علينا أن نتصوَّر كيف يعلِن التجسُّد الثالوث القدوس، ولكن علينا أن ندرك أن عمق هذا الإعلان هو تأسيس علاقة جديدة بالآب وبالروح في المسيح يسوع ابن الله. فالاعتراف بابن اللّه هو اعترافٌ مباشر بعطية التبني، لأن الإعلان عن بنوة الابن لنا هو إعلان عن النعمة، ولذلك الإيمان بالثالوث القدوس هو إيمان بالنعمة المعطاة لنا في ابنه، وهي نعمة يُثَبِّتُها الروح القدس فينا حسب وعد الرب في إنجيل يوحنا.

لقد مرَّت عليَّ سنوات قبل أن أستوعب هذه الحقيقة الرسولية، وقد دُهِشتُ لأنها كانت واضحة جدًا في العهد الجديد، ولكن فكري لم يكن مستعدًا لهذه الرؤية بسبب ما زَرَعَته الخطية من انقسامات في الفكر. خطورة الخطية هي في أنها تحوِّل كل الأشياء إلى وسائل. وخطورة الشهوة في أنها تختار ما يلائمها وتترك ما يتعارض معها، وعند ذلك تبدأ الانقسامات في الظهور مثل شروخٍ في بيتٍ قديم، تبدأُ صغيرةً

ثم تتسع حتى ينهار البيت كله. البناء الفكري يجب أن يبقى متماسكًا كاملاً تحت سيادة المحبة وتحت سيادة الالتصاق بالرب وإنارة الروح القدس. بدون توفر هذه العلاقة يضيع كلُّ شيء منّا.

عندما تجمع المحبة، فإن ما تجمعه يظهر بشكلٍ جديد. كان جسدي هو جسدي الذي وُلِدتُ به، ولكن جسدي الذي صرتُ أُحبُّه بسبب سُكنى الروح القدس وبسبب محبة مُحب البشر للإنسانية، تحوَّل في نظري إلى ما هو أرفع وأعظم من التراب، إلى مسكن للثالوث، وإلى ذبيحة وقربان. وهذا نفسه ما جعلني أُدرِك أن نظرتي للجسد تؤثِّر على نظرتي للإفخارستيا نفسها، أي سر التناول نفسه. والالتصاق بالرب يجعل الرب دائمًا -حسب تعبير الكنيسة المقدسة- «ميناء الذين في العاصفة». فقد كنتُ أخاف من الرب عندما كانت تحيط بي التجارب والشهوات الرديئة، وكنتُ أريد أن أنتصر بقوة إرادتي، ولكنني واجهت الفشل واليأس. وأخيرًا، عندما كنت أقرأ حياة الأنبا أنطونيوس أدركتُ أنني لم أتعلم درس الرهبنة الأول، فقد كان الشيطان يضرب أبينا الأنبا أنطونيوس، ولكن عندما لجأ إلى «الميناء»، وجد السلام والتعزية.

عندما أدركتُ أن محبة الرب للبشر هي محبة لهم كما هم، أي كما هم في خطاياهم وسقوطهم، محبة تريد أن ترفعهم إلى فوق، حلَّ سلامٌ عميقٌ في قلبي.

وماذا فعل الالتصاق بالرب في فكري؟ لم أكن أُصلي فقط من أجل كل فكر يخطر على قلبي، بل كنت أجد أن أفكاري هي اعترافٌ دائمٌ لا ينقطع للرب «الطبيب الحقيقي لأجسادنا وأرواحنا»، وقد توقَّفتُ عند عبارة الصلاة: «يا مدبِّر كلِّ جسدٍ تعهَّدنا بخلاصك»، لأن تدبير الخلاص هو تدبير كل ما يعلِن ويثبِّت محبةَ الله. هذا لا يمكن تأمله بدون شركة مع الرب وفي صلاحه. هذه الحقيقة العجيبة أراها في أن كل مرة نلتصق بالرب، ننال استنارةً من الروح القدس، وكل ما ننال استنارةً من الروح القدس، يزداد التصاقُنا بالرب.

أمَّا التحوُّل الحقيقي في حياتي الداخلية، فقد بدأ عندما أدركتُ باستنارة الروح القدس أن فهمي واختباري للثالوث يبدأ بالتجسُّد. لقد تجسَّد الربُّ ابن الآب لكي يعلِن لنا الآب والروح القدس. قبل أن تسأل كيف، عليك أن تسأل أولاً لماذا، لأن هذا هو **سِرُّ الإيمان بالمسيح؛ أن سبب وغاية الإعلان الإلهي هو الذي يردُّ على كل الأسئلة التي تندرج تحت كيف، وهذا يعني أننا يجب أن نبدأ من غاية تجسُّد الرب، لأن هذه الغاية هي التي تشرح لنا كيف.** أمَّا إذا بدأنا بدون الغاية، فإننا نصل إلى رمالٍ متحركة نغوصُ فيها حتى نموت، أي مثل تلك الرمال التي تقع بجانب طريق الملاحات في برية شهيت والتي سمعتُ عنها ولم أرها سوى مرةً واحدة. إن رمال الفضول تحرِّك رفض الإنسان لنعمة الله، ولكن الإيمان يجب أن يدخل مِن باب التدبير، أي مِن باب الخلاص لأن استيعاب الخلاص هو الذي يشرح لنا الإيمان.

لقد تجسَّد الرب يسوع من القديسة مريم والدة الإله ومن الروح القدس. **هكذا يبدأ التجسُّد بإعلان دور الروح في تكوين الإنسانية الجديدة، أي إنسانية يسوع، وليس إنسانية آدم الأول، إنسانية تأخذ وجودها من اللحم والدم الآدمي لكي تصل إلى رتبة الابن المتجسِّد.** هذا تشرحه عبارة واحدة جامعة: «أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له».

عندما اتَّحد ابن الله بالناسوت، صار الناسوت هو مركز الإعلان عن أُلوهية الرب، وعن مسحة الروح القدس، وعن محبة الآب. ولاحِظ ترتيب التدبير؛ أُلوهية الرب الأزلية تعلَن في التجسُّد، ثم مسحته بالروح القدس في المعمودية. **والصلة بين التجسُّد والمعمودية هي صلة بداية الخليقة الجديدة بقوة ومواهب وعمل الروح القدس؛ الأولى من المسيح وفيه، والثانية من المسيح وفيه بالروح القدس.** هكذا ندخل إلى عقيدة الثالوث من باب اختبار التجديد، أي الخليقة الجديدة التي تحيا بالروح القدس. بدايتها وكمالها في المسيح وفي الروح القدس. وحسب الترتيب، نرى من كل هذا محبة الآب التي أكَّدها الابن عندما رُفِعَ على الصليب قرباناً وذبيحة محبة تعلِن لنا محبة الآب الذي قدَّم هذه الذبيحة لنا، ومحبة

الابن الذي طواعيةً قدَّم ذاته، ومحبة الروح القدس الذي يسكن فينا لكي يسكب محبة الله ويقدِّسُنا، أي يعطينا محبته للآب والابن، فينقل الطبيعة المائتة، **لأن عدم المحبة هو عدم حياة وعدم الحياة هو موت.** وعندما نقترب من القيامة، فإن التعليم الرسولي يؤكِّد لنا أن الروح القدس أقام يسوع من الأموات (رو ٨: ١١)، وهو الذي سوف يُقيم أجسادنا من الموت. فالروح يسكن فينا لكي يعلِن فينا ومِن خلال شركتنا في المسيح، القيامة التي بدايتها أو رأسها في الرب نفسه. فالتجسُّد، والمعمودية في الأردن، والموت على الصليب، والقيامة، هي كلها حركة المحبة الإلهية التي تحرِّك الناسوت في الابن نحو هذه الإعلانات التي تأخذ بدايتها في ناسوت الابن لكي ترفع عقولنا إلى غايتها، أي وحدة جوهر الثالوث، وذلك بتذوُّق واختبار هذه النعمة الفياضة.

فَتَحَ الربُّ ذهني لكي أفهم أن النعمة واحدة. لقد كانت بداية حياة الرب يسوع بالجسد من الروح القدس، وكانت خاتمة هذه الحياة في الجسد بالروح القدس الذي أقامه من الأموات، والذي تجلَّى بمجده على جبل طابور. ويُخطئ مَن يظن أن الرب يسوع هو وسيلة إعلان. هذا تقسيم جسداني، لأن الرب يسوع الذي أخذ بدايته من الروح القدس، أي تجسُّده، وأكمل خدمته بالقيامة، هو شخصٌ واحد، والذي ينمو فيه هو الناسوت وليس اللاهوت.

أعلَن التجسُّد تمايُز الابن عن الآب، ثم أعلن لنا هذا التمايُز نفسه بداية الخليقة الجديدة في المسيح، ثم أعلن لنا التجسُّد عمل الروح القدس، أي المسحة.

نستطيع أن نتكلم عن التصاق الخليقة الجديدة بالروح القدس، فهذه إحدى عطايا التجديد. هذا الالتصاق يبدأ بتكوين الإنسانية التي تحيا بالروح القدس. **هكذا كان المسيح منذ بداية تكوين ناسوته إنسانًا يحيا بالروح القدس**، وعندما مُسِحَ كانت المسحة لنا كما كان الميلاد من العذراء لنا.

عندما دخل الناسوت شركة الجوهر الإلهي الواحد للثالوث، بسبب اتحاده بالابن المتجسِّد، وبسبب وحدة الابن بالآب وبالروح القدس، صارت كل خيرات اللاهوت في انتظار الإنسانية حسب تدبير الله. أنت تَعرِف يا أخ كم كان ولا زال لنا تاريخ مؤلم مع مجمع خلقيدونية، وكنتُ كلما سمعتُ أيَّ شيء عن «اللاهوت والناسوت» كنتُ أظن أن مثل هذه العبارات هي عبارات نسطورية. لكن أنت تعلم أن عبارة «واحد من اثنين» التي نرتلها في التسبحة السنوية هي عبارة جميلة مملوءة بالأسرار الروحية. لنا ربٌّ واحد يسوع المسيح، واحد من لاهوت وناسوت، هكذا نؤكِّد الاتحاد لكي نؤكِّد الخلاص ومجد الإنسان في يسوع المسيح رب المجد. **ولأن الابن ربنا يسوع المسيح، واحدٌ من اثنين، صار كل ما نقوله عن علاقتنا بالثالوث هي علاقة جوهرها واحد، ودائمًا من اثنين. نعمة واحدة تُعطى لنا من الثالوث بواسطة الابن وبالروح القدس، نعمة واحدة تعطى من واحد هو الرب يسوع من اثنين، أي من لاهوته وناسوته، ولذلك كل ما أُعطىَ لنا من الرب كان فيه دائمًا العنصر المخلوق؛ مثل مياه المعمودية، وخبز الشركة وكأس البركة. هذه النِّعم لها جانبها المخلوق الذي دُعيَ للشركة في الحياة الجديدة بسبب تجسُّد الابن الوحيد واتحاد اللاهوت بالناسوت.**

كذلك أيضًا يجب علينا أن نفهم حقيقة وجود الناسوت، أي ناسوت الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح رب المجد في وحدة جوهر لاهوت الثالوث. هذا السر أعمق من أن يُوصَف، ولكن مع ذلك لدينا بعض الإشارات التي تؤكِّد لنا حقائق عظيمة خاصة بالخلاص. وعلى سبيل المثال؛ **لماذا قال الملاك لوالدة الإله: «الروح القدس يحلُّ عليكِ وقوة العلي تظلِّلُكِ لذلك القدوس المولود منكِ يدعى ابن الله»؟ لم يكن هذا من أجل ميلاد الرب وحده، بل من أجلنا نحن، لأن الروح القدس يحلُّ على مياه المعمودية، والمولود من مياه المعمودية يتقدَّس، ويصبح ابن الله في المسيح.** كانت هذه البداية هي «جذر» أو «أصل» الخليقة الجديدة في المسيح، وهنا لا يجب أن نسأل كيف، بل لماذا؛ لأننا عندما ندخل الحياة الجديدة، فنحن ندخل

بشركة في الثالوث، هذا ما يجعلنا نقول في التسبحة الكيهكية:

«قلبي ولساني للثالوث يُسبِّحان
أيها الثالوث القدوس ارحمنا»

نحن نسبِّح الذي لأجلنا أرسل ابنه، والذي منه وفيه نُولَد دائمًا ولادة لا تنتهي بالانفصال، بل ولادة تقود إلى الشركة. لقد حلَّ الروح لكي يُولَد الابنُ متجسِّدًا من البتول والدة الإله. ونحن بعد العنصرة، حلَّ الروح القدس على جماعة الرسل لكي يُولَد من الكنيسة بالتعليم وبسر المعمودية أبناء الله المدعوين إلى شركة الرب يسوع، وإلى الحياة الجديدة. جاء الروح القدس منذ بداية التجديد لكي يخلق الأصل الجديد للجنس البشري الذي سيصير مواطنًا سماويًّا. هذا ما تؤكده التسبحة السنوية وتعلنه في أبسط كلمات ممكنة عندما نعطي السلام «لبيت لحم»».

ساد صمتٌ برهةً، وكان الأب فليمون يستعيد ذكريات خاصة.

كان يصلِّي، وقال بعد فترة طويلة من الصمت: «هل تعرف يا أخ معنى كلمة «المسيح؟» فقلتُ له: نعم، الممسوح بالروح القدس. قال: «وما هو معنى مسيحي؟» فقلتُ له: الممسوح بالروح القدس. فقال: «ولكن هل أدركت من معنى الكلمة «الممسوح بالروح القدس» أن ربنا يسوع صار الممسوح بالروح القدس لكي بالروح القدس يُصلَب؟» فقلت له: نعم. فقال: «هل تعرف ما هي علاقة الروح القدس بصَلب الابن رب المجد على الصليب؟» فقلت له: لم أدرس هذا الموضوع. فقال: «إنه موضوع لا يُدرَس، بل علاقة أُعلِنَت لنا لكي لا نفصل الروح القدس عن الصليب، وحتى لا يقودنا عقل الخطية إلى هذا الفصل الذي فيه نفقد العلاقة بين الألم والمجد، بين الضعف والقوة، بين الهوان وعار الصليب وحرية أولاد الله، بين فلسفة ومنطق العالم وحياتنا كذبائح في هيكل الله».

هكذا تكلم في سرعة وفي دقة، كأنه كان يقرأ ما في عقلي من أسئلة عن جدوى اكتشاف العلاقة بين الصليب ويسوع الممسوح بالروح القدس.

ونظر إليَّ وقال:

«ماذا يحدث لنا عندما تصبح الجلجثة والقبر والعلِّية، حيث حلَّ الروح، ثلاثة أماكن منفصلة ليس بينها رابط سوى الكلام الذي نقوله؟ لقد حلَّ الروح في العلية حيث أعطانا الرب يسوع جسده ودمه سِرًّا، وكان يسوع قد صُلِبَ على الجلجثة حيث كان الروح القدس، روح المسحة، الروح الذي منه أخذ يسوع صفة «المسيح»، فصارت الجلجثة والعلية حقيقة واحدة يربط بينهما القبر، أي موت ودفن الرب يسوع المسيح، رب المجد.

عندما جاء الربُّ إلينا، كان الموتُ هو المشكلة الحقيقية. في آدم كان الموتُ تابعًا للخطية، وبعد آدم صارت الخطية تابعة للموت. كانت الخطية هي الأصل، والموت هو الفرع الذي نما منها، وبعد آدم صار الموت هو الجذر الذي منه تفرَّعت كلُّ شجرة الخطية. بسبب الموت يُخطئ الإنسان.

ولكن في المسيح، كان الموتُ هو ما حدث على الصليب. مات الربُّ وبموته ماتت الخطية، ولذلك يقول الرسول: «لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية»، أي أن **الرب مات للخطية، أي الحياة المستقلة عن الله والغريبة عنه، ولذلك السبب قال على الصليب:** «**إلهي لماذا تركتني؟**» هذا عجيبٌ حقًا، إذ كيف يشعر يسوع الممسوح بالروح القدس «مسيح الآب» بأن الآب قد تركه؟ لم يذكر يسوع الروح القدس، ولا فَقَدَ صفته كمسيح، لأن الروح القدس كان يُعِدَّه وكان هو فرحًا بهذه الخدمة التي وصفها الرسول في العبرانيين: «مستهينًا بالخزي»، وطبعًا نحن نفكر في شتائم وإهانات اليهود. هذا طبعًا هو المعنى الظاهر لكلمة «خزي»، **ولكن الخزي والعار هو الحياة البعيدة عن الله التي تفقد سبب أو غاية وجودها، ولذلك كان لموت الرب وجهان؛ الأول: الإنسانية العارية من مجد الله الفقيرة جدًا، والتي قال عنها الرسول: «أعوزها مجد الله»، والوجه الآخر: المجد الأبدي ليسوع.** هذا المجد لم يظهر كما ظهر على جبل التجلي. لقد تجلَّى الرب قبل صلبه لكي يؤكِّد أنه ربُّ المجد، ولذلك يقول الرسول بولس: «لأنهم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد»، فالصليب عارٌ وخزي وموت

ودينونة، ولكنه في نفس الوقت مجد وقوة وحياة، ولذلك قال الرسول: «أما أنا فحاشا لي أن أفتخر إلاَّ بيسوع المسيح وإياه مصلوبًا». وقال إن «كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أمَّا عندنا نحن فهي قوة اللّٰه»، ولم يكن الرسول يتكلم فقط عن رفض اليهود، بل عن الإنسانية التي ترى في موت الرب العار والخزي والضعف، وهو ما يصدم عقل الإنسان المتعجرف الذي لا يعرف ما لروح اللّٰه.

لكن إذا وضعنا القبر بين الجلجثة، أي الصليب، والعلية حيث حلَّ الروح القدس، نُدرِك أن يسوع ربنا مات ودُفِن لكي ينال مجد الممسوح بالروح القدس. هكذا عَبَرَ الربُّ من حياة آدم الأول حتى جاء إلى الموت ودخله كمسيح الآب، ودخله بقوة الروح القدس الذي مَسَحَه لهذه الخدمة الكهنوتية، لكي بموته يضمّ الروحُ من قوة رب الحياة إلى ضَعف وآلام الصليب وموته. هكذا اشترك الروح القدس في صَلبِ الرب، ولذلك، عندما يتكلم الرسول عن شفاعة الروح القدس الذي يشفع فينا بأنَّات لا يُنطَق بها، فهو يقدِّم لنا حضور الروح القدس في يسوع في بستان جسثيماني بشكل خاص. لقد قال الرسول عن ربنا إنه عندما كان في الجسد، أي «في أيام جسده، قدَّم بصراخ شديد ودموع طِلبات وتضرعات للقادر أن يخلِّصه من الموت، وسُمِعَ له من أجل تقواه». وأضاف الرسول بعد ذلك «ورغم كَوْنِه ابنًا تعلَّم الطاعة مما تألم به. وإذ كُمِّلَ صار لجميع الذين يطيعونه سَبَبَ خَلاَصٍ أَبَدِي» (عب ٥ : ٧ - ٩). لقد صلَّى ربنا يسوع المسيح بالروح القدس، كان صراخه وتضرعه هو صراخٌ شديد ودموعُ الممسوح بالروح، لكي يتَّحد الروح القدس بهذه الأنَّات (جمع أنين). وبسبب المسحة، سُمِعَ للابن المتجسِّد، وبسبب تقواه وقداسته الذاتية «عَبَرَ كأس الموت»، نعم «عَبَرَ» بالقيامة[٣]، وعندما قال الرسول إن الرب صرخ «للقادر أن يخلِّصه من الموت»، أعلن شركة الآب في الفداء، في الخلاص، لأن الآب عندما قدَّم ابنه فديةً أو كفَّارةً (رو ٣ : ٢٤)، فقد كان يؤكِّد أنه

٣- العبور هو أحد معاني كلمة بصحة. هكذا يجب أن نفهم "فلتعبر عني هذه الكأس"، أي ليُشرِق نور القيامة، قيامة القدوس الذي بلا عيب الذي يدخل ويجوز وادي ظلِّ الموت.

سوف يخلِّص الابن المصلوب من الموت، كما كان الروح الذي مسحه لهذه الخدمة يؤهِّله لذلك، ولم يكن الرب ضعيفًا بل هو القدوس القادر على كل شيء، ووجود الرب واتحاده بالجسد هو الذي حتَّم على الآباء الرسل أن يكتبوا عن هذا الحق بهذه الكلمات.

لقد غَرَسَ الربُّ يسوع الصليبَ في مجال حلول الروح القدس، كنتُ أودُّ أن أقول لك في قلب الروح القدس ولكنني خشيت أن تصدمك الكلمة. وما هو قلب الروح القدس؟ هو التقديس، وهو كيان الأقنوم الثالث، الذي ينقله إلينا الروح القدس بواسطة آلام الرب وموته وقيامته، أي بواسطة شركتنا في هذه الآلام ومعاناة، أي مخاض الإنسانية الجديدة. هل وجدت هذا الكلام مطابقًا لما درست؟»

فقلت له: الحقيقة أننا لا نتحدَّث بالمرة عن علاقة الروح القدس بآلام الرب وقيامته، ولذلك أجد أن هذا الموضوع جديدٌ جدًا عليَّ. فقال: «لديك درس خصوصي وهو أن تقرأ كل ما قيل عن آلام الرب وآلام أعضاء جسده في العهد الجديد، وأن تدرس أقوال الله الحية لكي ترى بنفسك أننا نشترك في آلام الرب، أي آلام ترك الخطية، وهي آلام رفض الشهوة، وآلام الوجود الكاذب المزيَّف حسب شهواتنا».

ساد الهدوء القلاية. وكنت أسترجع في ذاكرتي ما قيل عن آلام الرب وعن آلام الرسول بولس بشكلٍ خاص، وبعد فترة من الصمت قال الأب فليمون:

«يا أخي المحبوب، توجد ثلاثة أنواع من الآلام. ألم الخسارة وفقدان ما نحرص عليه، وهذا يحرِّكُه الموت الذي فينا. ألم الفشل في تحقيق ما نطلب، وهو ألمٌ تحرِّكُه فينا الكبرياء. وألم مخاض الطبيعة الجديدة، أي طبيعة المسيح التي تُولَد فينا بكلمة الله وبالماء وبالروح، وتظل في حالة مخاض إلى يوم الانعتاق عن الجسد.

أُريدك أن تتأمل بعناية الألم الثالث، لأنه في الحقيقة يجمع الألم

الأول والثاني، لأننا نُولَد كلما اصطدمنا بالموت، ونُولَد كلما واجهتنا صعوباتٌ وفشل. **والفرق بين آلام المؤمنين وآلام غير المؤمنين هو أن آلام المؤمنين لها غاية، وهي الاتحاد بالرب والذوبان في محبته، ولذلك عندما نخسر شيئًا، فإننا نُدرِك أن هذه الخسارة هي ربحٌ حسب قول الرسول بولس، وعندما نفشل في تحقيق شيء، فإننا نُدرِك أن الغاية الأعظم هي التي نسعى وراءها «لكي أدرك الكمال الذي لأجله أدركني الرب يسوع المسيح»**. هذا كله هو ما نصفه بالتقديس لأن الروح ينقل إلينا أنَّات الرب يسوع ومعاناة إنسانيته وهي تدخل مخاض الموت، وتُصارِع من أجل البقاء في وحدة كاملة مع أقنوم الابن الكلمة».

هنا قَفَزَ في ذهني سؤالٌ عَبَر في سرعة رهيبة، وكان بمثابة اعتراض فتح لي باب معرفة أكبر. قلت له: أبونا فليمون ألا ترى أنك تقسِّم المسيح الواحد إلى اثنين، لأنك تتحدث عن معاناة إنسانية الرب، ونحن لا نفكِّر ولا نتصوَّر أن هذه الإنسانية لها وجود خاص مستقل عن وجود أقنوم الابن الكلمة؟ ألا ترى أنك تقترب من هرطقة نسطور؟.

ولم يغضب بالمرة، بل سَمِعَ كلامي في صبرٍ وهدوء وقال:

«**ليعطينا الرب أن نرى أن ما حدث لناسوته هو برنامج الخلاص كله، لأن الرب يسوع المسيح أخذ ذلك الناسوت وجعله يتَّحد بأُلوهيته حسب التدبير لكي ينقل الإنسانية نقلاً كاملاً من حياة الانفصال إلى حياة الاتحاد، ومن الخطية إلى التقديس**. صدقني إن كل ما يقال عن الإيمان إذا لم يَرَ في تجسُّد الرب يسوع وموته على الصليب حياةً جديدةً وبداية عودتنا إلى الله، يصبح إيماننا دعوةً صريحةً للعودة إلى الانفصال، أنا لم أدرس الهرطقات، ولكنني درست في مدرسة الصلاة، وتعلَّمتُ هذه الحقائق:

أولاً: إننا ننال بدايةً جديدةً في المسيح، كيف؟ أقول لك: البداية ليست هي أقنوم الابن، بل الناسوت.

ثانيًا: إن كل ما حدث للرب حدث بسبب الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، لأننا لو تصوَّرنا أن ما حدث لناسوت الرب، حدث

للناسوت وحده، وجدنا أنفسنا نعلِّم بهرطقة نسطور.

ثالثًا: إن اللاهوت هو مصدر حياة الابن المتجسد، وهو الذي يفتح لنا باب الحياة وينقل من حياته كل ما هو مجيد وصالح وأبدي ولا وجود له في الناسوت.

هذا هو جوهر الإيمان الأرثوذكسي، وقد قرأتُ مع أحد شيوخ الدير كتاب «اعترافات الآباء»، ووجدت أن ما يُقال في هذا الكتاب كاف جدًا لمن يريد أن يتعلم.

هل تتصور يا أخ أن الرب ترك جسده يموت عندما ذاق الموت بالجسد، وكان لاهوته في حالة سكون وكأن الأمر لا يعنيه؟»

قاطعته وقلت له: لا، سمعت من أستاذنا الدكتور وهيب عطالله أن اللاهوت تألَّم ألمًا أدبيًّا، أي روحيًّا لأنه ليس له طبيعة جسدانية تتألم.

فقال:

«هذا عظيم، ولكن مع ذلك، يجب أن نسأل لقد تألم الرب الألم الذي يجعل ناسوته يُولَد إلى حياة عدم الألم، أن لا يرى في الصليب خسارةً أو فشلاً. هكذا تحوَّل الألم إلى ترك كل ما هو خاص بالطبيعة الإنسانية التي تعرف الخسارة وتخاف منها وترفضها، إلى الطبيعة الإنسانية التي تفرح بالخسارة وتراها مكسبًا، ولذلك صلَّى الرب في البستان لكي يؤسِّس قانون الصلاة الجديدة، أي قانون الطبيعة الجديدة. هذا القانون مبني على ثلاثة أشياء:

أولاً: الاتحاد التام حتى درجة التضحية بالموت.

ثانيًا: محبة الآب الفائقة، وتفضيل هذه المحبة على كل شيء آخر، واعتبار هذه المحبة مركز الحياة.

ثالثًا: انسكاب الروح القدس فينا لكي يشفع، أي لكي يُعلِّم كل مسيحي ما هي الصلاة حسب التصاق كل مؤمن بالمسيح المصلوب والقائم من بين الأموات.

نحن نسعى حاملين كلٌّ منّا «صليبه»، أي حياة البذل، وهي نفسها حياة جحد الذات. لا يوجد فرق بين جحد الذات وبذل الذات. **نحن نجحد حياتنا عندما ندرِك أنها بدون المسيح لا تستحق شيئًا، نفضِّل المسيح عليها**. وعندما تشتعل فينا محبة اللّه، فإننا نجحد حتى ما هو صالحٌ وحَسِن. هكذا نتحرك -يا أخ- نحو المسيح تاركين كل شيء. لقد ترك الرسل شِبَاك الصيد، بل تركوا أسرتهم وتَبِعوا الرب، فقد أحبوه، ولذلك ساروا خلفه حاملين كلٌّ منهم «صليبه» الذي هو انعكاس صليب المسيح على حياتهم. هذا التحوُّل هو الذي جعل كل رسول يموت مصلوبًا أو شهيدًا، لأنهم التصقوا بالرب تمام الالتصاق، حتى أخذوا نفس «الميتة».

عندما ندخل «عرين الصليب» ندرِكُ محبة الآب ونفهم أن بذل الابن هو بذل الآب والروح القدس. لا يقدر أحدٌ أن يفهم أو يدرِك الله إلاَّ إذا تشبَّه بالله. هذا هو اللاهوت الحقيقي، لأننا لا نفهم أي شيء حتى نمارسه.

نحن نصلِّي بالروح القدس دائمًا، حتى في أوقات التغصُّب، لأننا وإن كانت لدينا إرادة وفكر، فإن الإرادة قد غُرِسَت فينا وصارت قوية بواسطة النعمة. وعندما نغصب أنفسنا، فإن جراح الصليب، أي صليبُنا نحن تُدمي وتسيل دمًا. هكذا يخطف الغاصبون الملكوت بالدم. كان الشيوخ يتحدثون عن التغصُّب، وقد أدركت من حديثهم أن التغصُّب يحتاج إلى العنف وإلى الغضب الموجَّه ضد الحياة القديمة، ضد ترك المسيح والتخلِّي عن الحياة المصلوبة. ولذلك، طوبى لمن يحمل الصليب في شبابه، عندما يغصب ذاته ويحمل صليبه بعنف وقوة وغضب الشباب.

كيف نصلِّي بالروح القدس؟ يحرِّكُنا الروح نحو المسيح، أي نحو الولادة، نحو المسحة، نحو الصليب، ونحو القيامة. والالتصاق الشخصي بيسوع هو التصاقٌ بميلاده ومسحته وصليبه وموته ودفنه، ثم بقيامته.

نحن لن نعاين كمال القيامة إذا كنّا في الجسد، ولذلك قال الرسول: إننا ما دُمنا في الجسد فنحن «غرباء»، ونتغرَّب لأننا في غربة كورة الموت. ومع إشراق نور القيامة علينا وفينا، إلاَّ أننا لا نزال في جسد الموت، ورغم

أن المسيح فينا يُولَد دائمًا ويُمسَح دائمًا ونُصلَب فيه دائمًا، إلاَّ أن كمال الحياة في المسيح مؤجَّل إلى الخليقة الجديدة الكاملة التي سوف تُعلَن في يوم القيامة.

هكذا أعود إلى بداية حديثي معك. لقد أعلَن التجسُّد تمايُز الأقانيم، ليس بشكل عقلي أجوف أو تأمل شخصي، ولكن بالالتصاق بالرب.

قد تسأل ما معنى أن تدخل ولادة يسوع في حياتنا؟ والجواب هو أن نُولَد من جديد مثل ولادة رأس الإنسانية، أن نكون حسب النعمة على ذات مستوى ولادة يسوع المسيح.

وما معنى أن نُمسَح فيه دائمًا؟ والمسحة الدائمة بالروح القدس هي التحوُّل الدائم الذي يحدث فينا، والذي نراه دائمًا كلَّما التصقنا بالرب المصلوب والحي في آنٍ واحد. مصلوبٌ لأنه يبذل حياته لأجلنا.

كانت عبارة الشيوخ في الدير بمثابة قانون لحياتي، وكانوا يقولون إن الرب يفرح بتطهير الخطاة، ويفرح عندما نعود إليه. نحن نُحزِن الروح القدس عندما نخطئ، ولكن عندما نعود، يفرح بنا الروح القدس، ويرد إلينا الفرح بمحبة البشر المعلَنة في يسوع المسيح.

بالصلاة ندخل حياة الثالوث، وبالصلاة نسير مع المسيح حتى نصل إلى قيامته. وعندما نسير مع الرب، نختبر محبة الآب وسُكنى الروح القدس فينا».

الصليب؛ قانون المعرفة الإلهية

وقانون الإفراز الأول والأخير

صنع الأب فليمون «صليبًا» صغيرًا من فرعي شجرة أمام كنيسة الشهداء، ووضع الصليب على حصيرة القلاية، وكان ينظر إليه ويلمسه وهو يتكلم.

قال الأب فليمون:
«سألتُ الرب أن يصنع لي قانونًا لحياتي، وأن أتعلَّم الإفراز. وسمعتُ صوت الرب في قلبي يردد ذات عبارة الإنجيل: «مَن لا يحمل صليبه ويسير خلفي لا يستحقني».

وسألتُ الرب أن يجعلني أفهم الصليب كما فهمه هو. ومع أن هذا طلب عزيز، وربما صعب، لكن جُود وكرم الرب وصلاحه ومحبته جعلتني أسأل وأطلب بكل إصرار أن أقترب منه، أي من قانون محبته حتى لا أضيع في هذا العالم.

مرَّت أيام كثيرة لا أذكر عددها، ولكن الرب فتح حواس قلبي عندما قرأ واحد من الآباء عظة القديس أثناسيوس الكبير في يوم الجمعة الكبيرة، التي يقول فيها إن الصليب هو قانونٌ لكل شيء، حتى حركة الأفلاك، وطلب الخلاص من الرب.

جلستُ في القلاية أثناء صلوات ليلة الجمعة الكبيرة أتأمل في موت الرب. كانت كلمات الرب تقودني إليه وتحركني بقوة. لقد تحدَّث الرب وهو معلَّقٌ على الصليب بعد أن ضُربَ وجُرِح وعُذِّبَ، ثم بعد الحكم عليه، وبعد ذلك قال الكلمات السبع المأثورة حسب تسليم الأناجيل الأربعة. لقد سَبَقَ هذه الكلمات إعدادُ الذبيحة بالتعذيب، ولكنه لم يعلِن لنا هذا الأساس إلاَّ بعد أن عُلِّقَ. لم يتكلم أثناء ضربه، والاقتراع على ثيابه،

وهو واقفٌ عريانٌ أمام معذِّبيه. هكذا أسلم نفسه تمامًا، وعندما كان يُساق للذبح -كما يقول النبي إشعياء- «لم يفتح فاه»، ولكن على الصليب، أي بعد أن عُلِّقَ بالمسامير، تكلَّم لكي يعلِن لنا قانون المعرفة الإلهية الحقيقية. لقد تعرَّى من ملابسه، من الرداء الخارجي الذي يميِّزه، وضُرِب مثل مجرم واتُّهِمَ في صلاحه وإيمانه، وكانت التهم كلها كاذبة ولذلك صَمَتَ. هذا هو أول طريق المعرفة الإلهية الذي تجعلني أترك كل ما أعرفه عن العالم وعن نفسي وعن السلوك.

لا بُد من التجرد التام، حتى نستطيع أن نرى كلَّ شيءٍ بوضوح. وعدم التجرُّد، سوف يجعلنا نمزج الخمر الجديدة في الزقاق القديمة، أو نضع الرقعة الجديدة في الثوب القديم. لقد حذَّرنا الرب من ذلك، لأن المعرفة الروحية الجديدة لا تصلح بالمرة ولا يمكن مصالحتها مع المعرفة القديمة ومحتويات الفكر البشري كلها. لا بُد من خلع الثوب القديم ولبس الثوب الجديد، وإلاَّ مزَّقت الرقعةُ الجديدة الثوبَ القديم.

هكذا فهمتُ القصص المخيفة عن آباءٍ سقطوا في خطايا صعبة بعد سنوات جهاد طويلة، وبعضهم ترك الرهبنة واعتنق اليهودية، أو سار في طريق الشر حتى نهايته. هؤلاء -حسب فهمي- كانوا يحاولون وضع الرقعة الجديدة في الثوب القديم، أو الخمر الجديدة في الزقاق القديمة. لقد ملأ الرُّعبُ قلبي من عبارة الرب عن تلف الزقاق وضياع الخمر. **لا يمكن أن نبدأ الحياة المسيحية الحقيقية، ونحن نسير مع العالم والمسيح في آنٍ واحد**. وكما أننا لا نملك أن نقرأ الكتاب المقدس كقضاة وتلاميذ، هكذا أيضًا لا يمكن أن نسير مع الرب بفكر العالم وفكر المسيح. عندما قال الرسول إن لنا «فكر المسيح»، فقد كان يقصد المعرفة الإلهية التي تختلف تمامًا عن المعرفة الأرضية. حيث القوة هي الغالبة، أمَّا حسب الله، الضعف هو الذي يغلب. حيث القهر هو السيد، أمَّا حسب الله، المحبة هي التي تجدِّد وتُصالِح.

حسب العالم، العنفُ يدمِّر الآخرين. وحسب المسيح، العنفُ يقودنا

نحو جذور الخطية فينا. حسب العالم، الحكمةُ هي أداةٌ لكسب المال والناس. وحسب المسيح، الحكمةُ هي المسيح نفسه، وهي الالتصاق به. حسب العالم، الجمالُ هو إغراءٌ وتعظيمٌ للنفس والجسد. وحسب المسيح، الجمالُ هو نعمة السلام وطلب الله.

ماذا يمكن أن أقول عن هذا التعارض التام بين العالم والمسيح؟

كلمة الرب واضحةٌ وتدعونا إلى ترك كل ما هو مِن العالم، مِن الخليقة الخاضعة للموت والفساد، وهما معًا مِن علامات سيادة الخطية، لأن الخطية هي التي جلبت الموت. يقول الرسول: «بالوصايا أو بالناموس معرفة الخطية». نحن نعرف الخطية جيدًا، وللخطية قانون معرفة وحكمة، وصورة حياة، وصوَر متنوعة للمحبة. أمَّا قانون المسيح، فهو معرفة وحكمة وحياة حقيقية ومحبة لا تنقسم، لأن انقسام المحبة هو أساس الخطية، ولكن المحبة التي لا تنقسم هي المحبة الواحدة التي لا تفضِّل شيئًا على آخر.

قال واحدٌ من شيوخ الدير: «يا فليمون، لماذا دخلت الرهبنة؟» فقلت له: «لكي أموت مع المسيح»، فقال لي: «هذا سهلٌ على اللسان، وصعبٌ على القلب والفكر، حاول أن تُميت شهوتك بإماتة الفكر، وأن تُميت الفكر بالالتصاق بالصليب». وسألته: «وكيف ألتصق بالصليب؟» فقال: أولاً بحفظ وصايا الرب يسوع، لأنها كلها تؤدي إلى الصليب، وحفظ الوصايا يبدأ بحفظ القلب لأنه مكتوبٌ: «فوق كل تحفُّظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة»، وحِفظُ القلب بطلب نعمة الروح القدس».

لم يستغرق هذا الحديث سوى دقائق ربما ثلاثة أو خمسة، ولكن ها أنا هنا وقد صار لي ما يزيد على عشرين عامًا أختبر فيها هذه الكلمات. سألتُ الربَّ أن يُنير قلبي وفكري لكي أعرف كيف أصلُب الفكر وأدفنه، ووجدت أن الفكر والرغبة معًا وحدة واحدة، الأول يزيد الثانية والثانية تتحرك فينا بفعل الإرادة، لا يوجد فكر بدون رغبة إلاَّ الفكر الشرير الذي يريد العدو أن يزرعه فينا، أمَّا فكرُنا الخاص النابع من

رغباتنا، فإن الرغبة لا يمكن أن تنفصل عنه. حاولتُ أولاً بالصوم لفترات طويلة كدتُ أن أهلك فيها، ولكن الصوم كان عاملاً مساعدًا لأن عدم الأكل لا يَقلَع رغبةً من قلب الإنسان، ولكن كلما طلبتُ معونةَ الروح القدس، كان قلبي يتطهر ويحلُّ فيَّ سلامُ المسيح، عند ذلك أدركتُ لماذا قال الأنبا أنطونيوس وأوصانا أن نطلب الروح الناري، روح الله القدوس ليلاً ونهارًا لأن النُّسك بدون نعمة، هو سبب هلاك كثيرين.

يفرح بنا الروح القدس عندما نطلب معونته، فهو نار المحبة الإلهية التي نحتاج إليها من آنٍ لآخر عندما تبرُد محبتنا وتهدأ.

في ليلة كان قلبي جافًا وفكري مثل الحجر ولم أستطع حتى النوم. تعلَّمتُ النوم وقوفًا من أحد رهبان الدير كان يحب النسك العنيف، وكان له صبر ووداعة هائلة، كان يقف في ركن القلاية ويحني ركبتيه، ثم ينام، وكان يعذِّب جسده حتى لا ينشغل فكره بالجسد، وجاء إلى قلايتي وعرفني بأسلوب حياته، وقلتُ له: جيد أن تنام واقفًا، ولكن لماذا لا تطلب معونة الروح القدس؟ ولكي أُعزِّي قلبه طلبتُ منه أن يردد معي قطع صلوات الساعة الثالثة، لاسيما «أيها الملك السمائي المعزِّي روح الحق»، وقد دُهِشتُ لأن هذا المقاتل الصلب لم يكن يسمع تعليم الكنيسة.

وفي يوم العنصرة، وأثناء صلاة السجدة، تكلَّم هذا الأخ بلسانٍ غريب، وقال لي إنه ذاق في فمه حلاوةً وعذوبةً جعلته ينسى أتعاب سنوات النسك، وقد فرحتُ لأنه امتلأ من الروح القدس، ونال ثباتًا في حياته واستراح من قتالات الزنى.

إننا نحن الذين نُشعِل رغباتنا النارية، ونحن الذين نجلب على أنفسنا أوجاع الزنى. عندما كنتُ شابًا حذَّرني أحد شيوخ الدير من الإفراط في محبة الجسد، وحذَّرني من الاحتقار الزائد، وقال إن كلاهما يجلب قتالات الزنى، لأن المحبة الزائدة تشعل الرغبات، والاحتقار الزائد يحرِّك فينا الشهوة، والسبب في ذلك هو التطرف اليميني، أي المحبة الزائدة

والتطرف الشمالي، أي الاحتقار الزائد. على اليمين تكمن العظمة الكاذبة، وعلى الشمال عدم تمجيد الله وشكره على الجسد، نعم على الجسد الترابي. وكلاهما؛ العظمة واحتقار الجسد، يُشعِلان فينا رغباتنا الجنسية. واحتقار الجسد بشكلٍ خاص، يضعنا خارج جمال الخليقة، ويجعل النُّسك غايةً وهدفًا نسعى إليه، بينما النُّسك وسيلةً.

إذا صار لنا غايةٌ أخرى غير المسيح، تحوَّلت هذه الغاية إلى مصيدة قاتلة مثل مصيدة الفئران حينما يدخل الفأر لكي يأكل، وهناك يموت بسبب الأكل.

وعندما أدركتُ أن برودة محبة الرب، أحد أسبابها هو عدم الشكر، بكيتُ كثيرًا على شقاوتي.

وعندما أدركتُ أن ضياع حرارة القلب يبدأ بالشعور بعدم جدوى المثابرة، تألمتُ لأن هذه الرغبات كانت خفيةً في قلبي.

هكذا كانت برودة وجفاف القلب والفكر بداية توبة.

هل تعرف يا أخ لماذا تتحرك فينا الرغبات الجنسية؟ قلتُ له: من الطبيعة. قال: نعم، ولكن الطبيعة لا يمكن أن تكون سبب دمار وموت لنفسها إلاَّ في حالة الخطية، **فالطبيعة بدون الخطية عاقلة وتترك طريق الموت، ولكن الطبيعة بالخطية جاهلة وتسعى وراء الموت.**

الرغبات الجنسية صالحة لأنها رغبة حقيقية في المحبة، وشريرة إذا تحولت إلى إرضاء لذة جسدية معينة. قال لي أحد شيوخ الدير: إن تأمُّل جمال الخليقة وشكر الله على الخليقة يقتل اللذة ويحوِّل قوتها إلى رغبة في الالتصاق بالله، لأن الشعور بالجمال وطلبه هو حركة طبيعية غرسها الروح القدس في الإنسان، ولذلك البتولية هي جمال حياة الدهر الآتي.

وعندما نكرِّم أجساد الشهداء والقديسين، فنحن نقدِّم لله الآب، في يسوع المسيح باكورة الجنس البشري، الخليقة الجديدة التي نالت ثمرة حياة الدهر الآتي التي لا يتزوج فيها أحد ولا يزوَّج فيها أحد، بل الحياة

الملائكية التي لا تقوم على التصاق الأجساد، بل وحدة المحبة. هكذا وجدت نفسي أشمُّ رائحة العطور التي توضَع على أجساد القديسين، وكنت أُدرك أنها رائحة المسيح الذكية، وعِطر حياة عدم الفساد.

كنت أرتمي عند أجساد الثلاثة مقارات متوسلاً للرب أن يجعلني أذوق ذات الحياة الجديدة التي ذاقوها، وكان مقر الأجساد بالنسبة لي هو «الجلجثة»، حيث قَهَرَ الربُّ الفساد والموت، وحيث غلب بهؤلاء. كانوا فرسانًا أشداء وغلبوا الخطية وأُم الخطية، أي الكبرياء والموت. نعم صار ذلك المكان هو أعز مكان للصلاة والتوبة.

ذهبتُ مرةً إلى جسد القديس يوأنس القصير وطرحتُ نفسي على جسد القديس وسألتُ الرب أن أتعلم كيف أُصلِّي بالروح القدس. كنتُ أحسُّ بأن الأفكار النجسة التي تمر بعقلي تمنعني من الصلاة، وكان إحساسي بنجاسة قلبي يعطل ثقتي بالرب. وسمعتُ صوتّ الرب يقول لي في وضوح كامل: «المحبة تعطي شجاعة وثقة، ليكن لك ثقة وشجاعة في محبتي». وهناك أدركتُ أن صلوات الكنيسة مُوحى بها من الروح القدس، وأننا دائمًا في القداسات حتى آخر صلاة، نطلب طهارة الفكر والقلب. وقد اشتعل قلبي بمحبة الرب ذات مرة عندما سمعتُ الكاهن يقول: «طهِّر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي بقلبٍ طاهرٍ ونفسٍ مستنيرةٍ، نجسرُ أن نقول بشكر: يا أبانا الذي في السموات ...». لقد منحني الرب هذه الثقة، ولم أعد أهتم بالأفكار النجسة التي كانت تَمرُّ بعقلي، بل صار لي ثقة في محبة الرب الغافرة، لأنه يؤكِّد لي من آنٍ لآخر كيف لا تتغيَّر محبته بالمرة، حتى وإن تغيَّرت محبتنا. لقد تعجَّبتُ من جهلي لأنني سمعتُ تعليم الرسول يقول عن ربنا يسوع المسيح: «لا يقدر أن يُنكر نفسه»، حتى إذا أنكرناه نحن. وكم هو عجيبٌ حقًا أن الرب لا يعاملنا حسب أفكارنا مهما كانت، لأن الرسول يقول عن محبة الله إنها انسكبت في قلوبنا بالروح القدس. ويقول أيضًا: «إنها لا تطلب ما لنفسها، لأنها لا تحتد ولا تظن السوء ولا تقبِّح» (١كور ١٣ : ٦). وهكذا تَمرُّ أيامٌ طويلةٌ أجلس فيها في القلاية وقلبي ثابت في الرب.

منحني الرب أن أُدرك أن معرفة الإنسان بالمسيح ليست مثل معرفة أي شيء آخر. كل ما نعرفه عن الخليقة وعن العالم المادي يرمز إلى الرب، ويمرُّ من خلال التدبير؛ الولادة والنمو والموت والقيامة والحياة الأبدية. نستطيع أن نرى كيف جمع الرب كل هذه معًا في تدبير تجسُّدِه، وجعلَ الولادة والنمو والموت والقيامة هي المربَّع الكبير الذي يتحرك فيه الإنسان. نحن نولَد جسديًّا، ولذلك نولَد روحيًّا في المعمودية. نحن ننمو بالطعام الجسداني، ولذلك نتغذَّى بكلمة الله الخالقة وبجسده ودمه. نحن نموت مع الرب في الصليب لكي ندخل حفرة الموت مع الرب ونقوم معه، وكل هذا يؤدي بنا إلى الحياة الأبدية.

هل تعرف يا أخ ما هي أنواع المعرفة التي تتكون فينا؟ أُخبرك في اختصار لأن هذا الأمر يجب أن يفحصه كل إنسان على حدة.

بالولادة نتعلم معرفة الالتصاق بالأشياء، بالوالدين، بالأب والأم والأخوة. هذا ما تزرعه فينا الولادة الجسدانية لأننا نتعلم كيف نصبح ملتصقين بالذين يعطون لنا الطعام والثياب والمسكن.

وبالنمو نتعلم اللغة وكيف نفكِّر وكيف ننمو في شركة مع الآخرين.

من الموت نتعلم زوال الأشياء وعدم التمسك بما نملك، لأننا إمَّا نتحرر من الأشياء التي نستعملها، أو نترك هذه الأشياء تسود علينا. سألتُ واحدًا من الاخوة كان يلبس حذاءً جديدًا: مَن الذي يلبس ويستعمل الآخر؟ ولم يدرك هذا الأخ قصدي. ظنَّ أنني مجنون. نحن نحرص على ما نملك، وزيادة الحرص تحوِّلنا في النهاية عبيدًا لما نملك.

عندما جاءت الجمعة الكبيرة (صَلبُ الرب) جَلستُ على حصيرة في الكنيسة، وكان في قلبي صلاة واحدة؛ أن يصبح الصليب قانون معرفتي وحياتي حسب عبارة القديس يوأنس القصير: «عِش بالصليب»، كيف أحيا بالصليب؟ وقد فتح الرب يسوع قلبي، فأدركت أنني يجب أن أُردِّد كلمات الرب يسوع السبع على الصليب حتى أحصل منها على

حياة جديدة. لقد دُهشت لأنني وجدت أن عبارة الرب: «يا أبتاه أغفر لهم» هي ذات كلمات الصلاة الربانية: «اغفر لنا ذنوبنا»، وهي ذات كلمات الرب يسوع: «إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم»، وهكذا دخلت المغفرة حياتي كقانون الصليب.

ماذا تفعل المغفرة بالفكر، وبكل ما نعرفه في حياتنا؟ إنها تحوِّلنا من أعداء لما نخاف ونكره ونبغض إلى أصدقاء. وصدقني أننا عندما نغفر، ننال قوةً فكريةً كبيرة. هكذا صارت «كريمة» صديقة لي، وصارت حتى أفكار التجديف والنجاسة مثل حيوانٍ أرعن أُعامِله بكل لطف، وأقول للشيطان ليغفر لك الرب، ولكنك لن تنال الغفرَان لأنك لا تعرفه، ولن تعرفه لأنك لم تتُب. حتى الشتائم صارت عندي شيئًا بلا قيمة، لأنني أعرف أنني سوف أغفر.

علَّمتني المغفرة أن لا أخاف.

وعندما قال الرب وهو على الصليب: «أنا عطشان»، علَّمني أن لا أخجل من احتياجاتي الإنسانية. صار الاعتراف بها أساسيًّا عندي. وماذا فعل عدم الخجل؟ جعلني أضع ثقتي في الرب، ولذلك لم أعُد أخاف من جهلي، ولا أخجل من جسدي، ولا من وجودي الترابي المؤقت.

لقد وضع الربُّ لي هذا القانون، أي قانون الصليب لكي أحيا به.

لقد دخل الصليب حياتي، وصارت حياتي بلا قيمة بدون الصليب. لم أكن أفكر في المصلوب فقط كمثال، بل أردتُ أن يدخل الصليب قلبي وفكري. سهلٌ علينا أن نفكر، وصعبٌ علينا أن يتحول الفكر إلى عمل، أي سلوك.

قلتُ للرب: أنا أُريد أن أُحبك كما تحبني أنت، وهذا مستحيلٌ عليَّ بدون نعمتك، والنعمة تعمل معنا وفينا إذا تمسَّكنا بالصليب، أي عندما يُصبح الصليب هو قاعدة الحياة التي نحياها.

أولاً محبة الرب الخاصة للخطاة. هذه المحبة تجرِّدُنا من روح البغضة

ومن الإدانة. ليس صعبًا على الإنسان أن يعرف أنه خاطئ. هذا في الحقيقة سهل، لأننا جميعًا نعرف ذلك، ولكن الصعب هو أن نحبّ الآخرين كخطاة مثلنا، وأن نغفر لهم بسبب محبة الرب الخاصة للخطاة. بذلك فهمت عبارة القديس يوأنس القصير: «عِش الصليب». أحيانًا كنت أجمع أغصان شجرة، وأعمل منها صليبًا، وكنت أجلس وأبكي لأنني أنا الذي صنعت الصليب ليسوع، وكنت أتعزَّى لأن الرب الذي صلبته بأعمالي حوَّل هذا إلى إعلان للمحبة الأزلية.

هكذا قلتُ ذات مرة: إنني تناولتُ قبل خلق العالم، لأنني أدركت أزلية الصليب، ولم أكُن أُدرك أن هذه الأزلية هي علة وجودي، ولكن بعد ذلك فهمت أن الرب كان يراني قبل خلق العالم، وأنه كما يقول المزمور: «عرف قيامي وجلوسي» (مز ١٣٩ : ٢).

الصليب حكمة الله المثلث الأقانيم

يقول الرسول إن كلمة الصليب عند اليونانيين أصحاب المدارس الفكرية، «جهالة»، وعند الذين يتمسكون بشريعة موسى «عثرة». قال الرب يسوع: «ويلٌ لمن تأتي به العثرات»، وكان يتكلم عن عثرة الخطية. تأمل كيف التهب قلب الرب واشتعل بالمحبة، حتى أنه رأى أن كلَّ عثرةٍ هي «ويل»، ولكنه اختبر ذلك الويل عندما وضعَ الصليبَ شفاءً وحياةً، فصار الصليب عثرةً لأهله وبني جنسه من اليهود. هكذا كَبُرَ كأس الرب، صار يرى الذين يُعثَرون في الصليب. وسبب عثرة الصليب هو الناموس الموسوي. الناموس واضحٌ، يعطى جزاءً لكل عمل، ولكن الصليب لا يعطي مكافأةً على أعمالٍ حَسَنةٍ، بل يعطي الأشرار والفُجَّار، ولذلك السبب قال الرسول: «لو كان بالناموس برٌ فالمسيح مات بلا سبب»، ولكن بِر المسيح هو نفسه عثرة، لا يمكن لهذا البر أن يدخل القلب الذي تحصَّن في أحكام الناموس الموسوي، لأن الناموس لا يعطي للأبرار أنفسهم أيَّ شيءٍ بلا مقابل. الناموس يكافئ البار على بره ويحكم بالموت على الخطاة. ومن ينتظر المكافأة يخطئ في معرفة حكمة الله، لأن الأجرة أو المكافأة هي على الأعمال الصالحة فقط، لا توجد مكافأة على الأعمال الشريرة، بل دينونة. ولذلك، عندما يرى المتمسِّك بالشريعة أن الله يعطي نعمةً فائقةً للخطاة، يشكُّ في عدل الله، ولكن الرسول يقول إن الله يبرر الفاجر، وهو يفعل ذلك دون أن يكون الفاجر مستحقًا، لم يطلب الفاجر النعمة ولا عرفها، ولكنه وجدها في انتظاره. لقد صُلِبَ الرب بسبب محبة الله وحكمته، وليس لأن الخطاة طلبوا ذلك وسَعَوا إليه، بل لأن الله صالح ورحيم ومحب البشر.

هل ترى -يا أخ- حكمة الله؟ أقول لك إن أهم ما يميِّز هذه الحكمة، أنها تطرح نفسها بقوة أمام الخطاة والأشرار لكي تجذبهم إلى شبكة المحبة الإلهية، وعندما ندخل هذه الشبكة نجد فيها الحرية الحقيقية.

كان أبي الروحي يقول لي إن حكمة الصليب ضد كل فلسفة وحكمة أرضية، لأنها تُبرِّر الفاجر، وتحكم للخاطئ بالحياة الأبدية. لذلك، لا يوجد عقل -مهما كان- لم يُعثَر في الصليب. حتى بولس عندما كان شاول، تعَثَّرَ في الصليب وسقط، ولكنه أدرك بر المسيح المجاني الذي يُعطى كنعمة عندما ظهر له الرب على طريق دمشق وهو المجدِّف والمضطَّهِد كنيسة الله جسده الواحد.

ما الذي يعطِّل تذوُّق الإنسان لحكمة الصليب، أي حكمة العطاء لمن لا يستحق، ولمن لم يطلب، ولمن لم يفعل الصلاح؟ لا تحتاج إجابة هذا السؤال إلى نظرية سياسية أو فلسفية، بل الرد عليه في عبارة واحدة: «لا تدينوا لكي لا تدانوا». والإدانة هي حكم، وحكم الناس مصدره اعتقادٌ ومشاعر غالبًا مختلطة بإيمان أو عقيدة قد تكون صحيحةً، ولكن سقوط الإنسان الأول آدم في الفردوس، جعل منه قانونًا لنفسه. صار هو مقياس الخير والشر. ولذلك، كمخلوقٍ من العدم، خُلِقَ لكي يجد فرحه الحقيقي في الله، وَجَدَ فرحه الكاذب في كيانه، ففقد بذلك معيار الخير والشر، لأنه فَقَد الشركة مع الله، وصارت حياته تدور حول مركزٍ واحد، وهو كيانه فقط. هذا هو الانفصال عن الله، وعن الحكمة والفرح لأن الحكمة الحقيقية تولِّد الفرح في الإنسان.

كانت حكمة الله في البدء هي معيار العطاء، لأن الحكمة هي ثمرة المحبة. الحكمة بلا محبة هي حكمة الشيطان. ولذلك، قيل عن الحيَّةِ أنها كانت حكيمة جدًا، ولم يكن لدى الحية حكمة.

جاء الرب لكي يجعل البذل بداية إعلان حكمة الله. ولذلك، كان التجسُّد هو بداية البذل، فقد ترك الابنُ مجده الأزلي ولبس الناسوت، أخذ ما هو ليس من طبعه، أي وَضْع الطبيعة الحقيرة الترابية، وهو الذي خلقها حقيرةً لكي تنال ملء مجده، ولما قال الرسول: «حلَّ فيه كل ملء اللاهوت جسديًا»، كان يشير إلى مجد الطبيعة الإنسانية في المسيح.

لماذا خصَّص الإنجيلُ الصليبَ بشكلٍ خاص، كإعلان عن حكمة اللّٰه؟

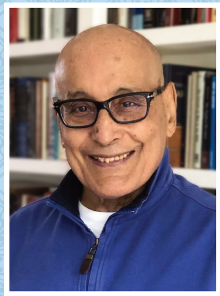
أولاً: لأنه حكمة المحبة في مواجهة الحكمة التي بلا محبة، أي حكمة الشيطان.

- حكمة محبة اللّٰه تعطي، وقد أعطت الوجود وخلقت الإنسان كصورةٍ للّٰه وجدَّدت الإنسان.
- حكمة المحبة تشفي وترد الضال بكل الوسائل، ولو أدَّى الأمر إلى أن تترك الـ ٩٩ لكي تعود بالواحد الضال.

كان الصليب هو مركز إعلان حكمة محبة اللّٰه. فقد أعلن محبة الآب ببذل الابن، وأعلن محبة الابن بقبول الموت على الصليب، وأعلن محبة الروح القدس بالمسحة لأن الروح القدس كوَّن ناسوت الرب ومسحه، فصار يسوع المسيح، وصار معلَنًا بالميلاد من البتول وبالمسحة وبالموت وبالقيامة.

بالميلاد من والدة الإله جاءت الحياة لكي تغلب الموت. وبالمعمودية جاءت مصالحة الروح القدس مع الطبيعة الإنسانية من أجل المصالحة الأبدية.

ثانيًا: أعلَن الصليبُ حكمة التقديس، لأن الحكمة التي تنفرد وتعمل من أجل مصلحتها غير مرتبطة بحرية العطاء هي حكمة الشيطان. والحكمة التي لا تقدِّس ولا تخصِّص هي حكمة شاردة، لأن التقديس هو عطاءٌ مخصوص من أجل غاية معينة، ولذلك قال الرب يسوع المسيح رب المجد: «لأجلهم أُقدِّس ذاتي لكي يكونوا مقدَّسين في الحق». يقدِّس الرب ذاته كقربان، ويقدِّس الرب ذاته عندما يجعل بشريتنا كاملةً فيه ويحفظها إلى الأبد.



عاش (الأب فليمون المقاري) بيننا ولم نحس به، ولا أدركنا أنه خزانةٌ هائلةٌ لأسرار الحياة الروحية الأرثوذكسية. كان قليل الكلام، وكان يتظاهر بأنه لا يسمع ولا يفهم، ولذلك انصرف الناس عنه. حتى رهبان الدير اعتقدوا أنه «بسيطٌ»، لا ضرر منه ولا منفعة، وهكذا عَبَر في هذه الحياة دون شِجار، ودون معارك كلامية من أي نوع.

كان الأب فليمون يتكلم كَمَن يقرأ من كتاب، وكانت الأفكار متواصلة مرتَّبة. وتحت رداء البساطة والسذاجة، ظَهَر راهبٌ قبطيٌّ حقيقيٌّ دَرَسَ الصراع الروحي وخِطَطَه وأتقن الحرب الروحية، وهو هنا مثل قائدٍ يعمل في ميدان القلب، ينقِّي هذا القلب ليكون عرشًا للثالوث.

وتمرُّ سنواتٌ على نياحة الأب فليمون. والآن، وقد نساه أغلب الذين يعرفونه، صار من الضروري أن أكتب من أجل الكنيسة ومن أجل مجد المسيح.

د. جورج حبيب بباوي

Coptology
www.coptology.com
جذور
GOZOOR
Publishing · Translation · Distribution